175

الأبحاث والدراسات

محافظة القنفذة

كما سمعت عنها ورأيتها

في شهر ذو الحجة عام

(١٤٣١ هـ / ٢٠١١ م) (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق ١٠ – ق ١٥ هـ / ق ١٦ – ق ٢١ م) (دراسة تاريخية حضارية) ، لغيثان بن جريس، (الطبعة الثانية) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)، ص ص ٢٦٣ - ٣٠٧ .

القسم الخامس

القسم الخامس : محافظة القنفذة كما سمعت عنها ورأيتها في شهر ذو الحجة عام (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)

م	الموضـــوع	الصفحة
أولاً :	تمهيد	٢٦٦
ثانياً :	التركيبة الجغرافية والسكانية :	٢٦٨
	١- التركيبة الجغرافية	٢٦٨
	٢- التركيبة السكانية	٢٧٢
ثالثاً :	ملامح الحياة الاجتماعية :	٢٧٣
	١- العمارة	٢٧٣
	٢- الأطعمة والأشربة	٢٧٧
	٣- الألبسة والزينة	٢٨١
	٤- عادات وتقاليد	٢٨٤
رابعاً :	ملامح الحياة الاقتصادية :	٢٨٧
	١- الجمع والالتقاط	٢٨٧
	٢- الصيد	٢٨٨
	٣- الزراعة	٢٨٩
	٤- التجارة	٢٩١
	٥- الحرف والصناعات المحلية	٢٩٤
خامساً :	ملامح الحياة التعليمية ، والثقافية والفكرية	٢٩٧
	١- التعليم	٢٩٧
	٢- الثقافة والفكر	٢٩٩
	٣- جوانب أخرى	٣٠٠
	الخلاصة : نتائج اقتراحات ، وتوصيات	٣٠٤

أولاً : تمهيد :

أوضحنا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب أهمية بلاد القنفذة مكانياً وزمنياً، ولهذا رأينا في هذا القسم أن نساهم برحلة استكشافية لهذه الديار، مع العلم أنها ليست غريبة علينا من قبل، فقد زرناها واجتزناها مرات عديدة خلال العقود الأربعة الماضية. لكن رؤيتها وعبورها في الماضي لم يكن مخططاً له، وإنما كنا نروح ونغدو من خلالها عندما نسافر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونرجع إلى مسقط رؤوسنا (سروات منطقة عسير)[١] .

وفي تمام الساعة الثالثة من مساء يوم الأحد الموافق (١٤٣١/١٢/١٥هـ) (٢٠١٠م) خرجت بسيارتي براً عبر عقبة ضلع في أبها متجها على طريق الساحل من الدرب، والشقيق[٢]، والحريضة [٣]، وأخيراً وصلنا وادي ذهبان في الناحية الجنوبية من منطقة القنفذة[٤]. وواصلت السير حتى دخلت في أثناء أذان المغرب بلدة البرك، ونزلت ضيفاً على الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الرحيم الهلالي[٥] . وأبديت له رغبتي في السياحة والتجول في بلاد القنفذة، فرحب بالفكرة، ومكثنا ليلتنا نخطط لرحلتنا في اليوم الثاني . ومكثت عنده يومين بلياليهما زرنا فيهما نواحي عديدة من بلاد البرك، وحلي، والقوز[٦] . وفي يومين آخرين تنقلت بمفردي بين مدن وقرى القنفذة الأخرى، مثل: القنفذة، والقوز، والحبيل[٧]، وقرى أحد بني زيد، وسبت الجارة، وخميس حرب،

---

(١) غالباً ما نسافر من عسير إلى الحجاز على الطريق الجبلي، لكن بعد أن أصبح خط الساحل مزدوجاً أصبح سهلاً ومفضلاً للمسافر من جازان وأبها ونجران إلى مكة والمدينة المنورة ، حبذا أن نرى باحثاً جاداً يدرس تاريخ المواصلات في تهامة والسرات خلال الخمسين سنة الماضية .

(٢) الدرب والشقيق بلدتان ساحليتان تابعتان لإمارة جازان، وهاتان البلدتان جديرتان بالدراسة، فياحبذا أن نرى البعض من إخواننا الباحثين وطلاب الدراسات العليا الجازانيين أو غيرهم من يخدمهما ببعض البحوث والدراسات العلمية القيمة ، هذا النداء اطلقته منذ عقد من الزمان ، ومازالت بلاد الدرب والبرك والشقيق وغيرها بحاجة إلى دراسات علمية موثقه .

(٣) الحريضة بلدة حديثة وتابعة لإمارة منطقة عسير ، كما أن بلدة الحريضة تستحق دراسة علمية جادة .

(٤) للمزيد عن وادي ذهبان، انظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص٢٢٦-٢٢٩ .

(٥) الأستاذ عبد الرحمن من أسرة آل عبدة الهلالية صاحبة المشيخة على بلدة البرك منذ زمن ليس بالقصير، وهو من المهتمين بتاريخ وتراث بلاده ومسقط رأسه، وله كتاب منشور بعنوان: برك الغماد .

(٦) لقد بذل الأستاذ عبد الرحمن جهوداً تذكر فتشكر فعرّفنا على العديد من أعيان بلدته البرك، وحلي، والقوز، بل تناولنا الغداء عند صديقه الأستاذ/ أحمد مهدلي في ثلاثاء يبة يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ)

(٧) القوز والحبيل : قريتان متجاورتان في مركز القوز ولا يفرق بينهما إلا الطريق العام، وبلدة القوز أكثر نمواً وتطوراً من جارتها ، وهاتان الناحيتان الآن (٤٢ - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م) من البلدان المتطورة في كثير من مرافقها الاقتصادية والتنموية .

وجمعة ربيعة[١]، والأحسبة، والمظيلف، ودوقة، وأخيراً ديار العرضيتين في الأجزاء الشرقية من محافظة القنفذة [٢].

وحتى لا نخوض في المعلومات التفصيلية عن الأشخاص والبروتوكولات والمناسبات واللقاءات الاجتماعية الكثيرة، التي لو أطلقنا العنان لأنفسنا للحديث عنها، فإنها سوف تذهب بنا بعيداً عن الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه[٣]. فقد رأيت أن نقصر حديثنا على بعض الجوانب التاريخية والحضارية التي سمعناها من أهالي المنطقة عن بلادهم في العقود المتأخرة الماضية، بالإضافة إلى ما شاهدنا وتكون لدينا من انطباعات للهدف نفسه [٤].

(١) جمعة ربيعة أو (ربيعة المقاطرة) تتبع إدارياً لمنطقة عسير وتجاور خميس حرب من الناحية الجنوبية وتقع على وادي يبة، ومن سكانها : الصعاودة، وآل حسان، وآل صقر، والدهاشرة، وآل جبران، وآل أحمد، وآل مشنية، وآل مناع، وآل خضير وغيرها.

(٢) انظر: الأقسام الثلاثة الأول من هذا الكتاب ، كما أصبحت العرضيات الآن (١٤٤٢ - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م) محافظة مستقلة تتبع إمارة منطقة مكة المكرمة .

(٣) نسعى إلى رصد بعض التفصيلات التاريخية القائمة على الرواية الشفاهية والمشاهدة والانطباع .

(٤) المصدر نفسه .

ثانياً : التركيبة الجغرافية والسكانية :

١- التركيبة الجغرافية :

أ- مركز البرك:

تمتد طبيعة هذا المركز من ذهبان جنوباً إلى قرية الصوالحة شمالاً[١]، ومن ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف مدينة محايل الحضارية من الناحية الشرقية . وعموم هذه البلاد كانت جزءاً من منطقة القنفذة، ثم صارت تراجع محافظة محايل التي تستمد قراراتها من إمارة منطقة عسير[٢]. والمشاهد لديار البرك من البلدة نفسها (البرك) إلى قرية دبسا شمالاً بحوالي (١٥) كيلومتراً يجد جبلها متصلاً بساحلها البحري، ومن قرية دبسا نحو الشمال يبدأ السهل الساحلي يتسع بين البحر والجبال[٣].

(*) من خلال تجوالنا في البلدة وما حولها شاهدنا بعض المعالم الجغرافية القديمة والحديثة، مثل :

١. ميناء البرك المتواضع في بنيته التحتية، فلا يوجد به إلا بعض الصيادين الذين يمتلكون قوارب صغيرة لصيد السمك والمتاجرة به . وهناك مرسيان آخران، هما : النهود، وسوبان شمال مدينة البرك[٤] .

٢. سور البرك الأثري والقلعة المتصلة به، ولقد اندثرت هذه المعالم ولم يعد يرى إلا أثرها [٥] .

٣. تنقسم بلدة البرك في الأساس إلى قسمين :

---

(١) المسافة من ذهبان إلى قرية الصوالحة (٦٠) كيلومتراً ، والبرك اليوم (٤٢ - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م) محافظة مستقله تتبع إمارة منطقة عسير .

(٢) بلاد البرك تحد منطقة محايل من الغرب، وهناك حالياً طريق مسفلت بعرض (٨ - ١٠م) يربط مدينة محايل ببلدة البرك، ارجو أن يطور إلى طريق مزدوج .

(٣) وكلما سرنا شمالاً إلى مدينة القنفذة اتسع السهل الساحلي، ففي قرية الصوالحة وما حولها ربما كانت المسافة بين الجبل والبحر حوالي (٢.٥كم) ، وهكذا تتسع حتى تصل إلى (٦٠-٧٠كم) شمال مدينتي القوز والقنفذة . مشاهدات الباحث وانطباعاته . عام (١٤٣١هـ / ٢٠١٠م) .

(٤) كانت مدينة البرك ذات تاريخ مشرف وحافل بالأحداث التاريخية والحضارية، انظر: ابن عبده، ص ١٤ وما بعدها .

(٥) هذا السور يعود تاريخه إلى العصور الإسلامية الوسيطة، وللمزيد انظر: ابن عبده، ص ٢١٤ وما بعدها.

(*) **الأول:** شرق الخط المسفلت ويسمى الحشة

(*) **الثاني:** غرب الخط ويطل على البحر ويسمى : القرية . والبرك حالياً ينقسم إلى عدد من الأحياء الصغيرة، مثل: الحشة العليا، وهي في محلها القديم، وهناك حشتان أخريان / باسم الحشة السفلى، وحشة الوادي، وهما قريبتان من الحشة الأولى . وحي الأمير سلطان (المركز الحضاري)[١]، وأحياء الصحين، والبياض، والبرك الجديد وجميعها حول مستشفى البرك، وأحياء أخرى مثل : العزيزية، والخالدية، وحشوة، وحارة البدو وغيرها .

٤. الحصن الأثري في ذهبان عند مصب الوادي، وسوق عمق الأسبوعي (يوم الجمعة) المشهور بأكل السمك والذرة، ولايزال يوجد به عشش شعبية تراثية حتى الآن[٢].

٥. شاطئ المحاجي : وهو كتلة صخرية في الناحية الشمالية وتصل اليابس بالبحر.

٦. كورنيش البليقعة (حالياً كورنيش المركز الحضاري) شرق تحلية المياه المالحة . وتُنشأ به الآن حديقة وملاعب أطفال ومدرجات، وكان يسمى قديماً بالرأس، وفيه يتصل البحر باليابسة[٣] .

٧. ويوجد على مقربة من بلدة البرك بعض الجزر البحرية، ومن أهمها : جزيرة حصر، وهي على مقربة من الساحل، ويشاهدها المسافر على الطريق الرئيسي الرابط بين مكة وجازان، ويتوسطها غابة من شجر المنقروف، المعروف محلياً باسم : (الإشرير) . وجزيرة الجبل عند مصب وادي الداهن من الجنوب، وتبعد عن البرك في البحر بحوالي (١٠) كيلومترات . وجزر أخرى داخل البحر مثل : جزيرتي موقط، والظهر[٤] .

---

(١) هذا الحي يقع إلى الجنوب من بلدة البرك، وهو (١٠٠) فيلا بها مبنى للتنمية الاجتماعية، بالإضافة إلى أبنية أخرى خدماتية كالمدارس وغيرها . ويوجد حول قرية الصوالحة مركز آخر . والهدف من هذين المركزين توطين بدو البرك الذين كانوا يعيشون على التنقل والترحال . مشاهدات الباحث يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مشاهدات الباحث يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ)، برفقة الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الرحيم الهلالي .

(٤) المصدر نفسه . وللمزيد من التفصيلات عن بلدة البرك وما جاورها انظر: البلادي، بين مكة واليمن ، ص ٢١٣-٢٢٤، ابن عبدة، برك الغماد، ص ٣١ وما بعدها .

ب - ناحية حلي :

يشتهر وادي حلي الكبير بوفرة مياهه وتنوع مزروعاته، وعلى الجزء الأخير منه يوجد العديد من القرى والبطون القنفذية . ففي الناحية الجنوبية من الوادي يستوطنه: العينة، وكياد، والسلامة، والفريق، والخريزات، والبيضين، والمعاشية، والفاهمة، والفلحة، والشواعرة في قرية مخشوش، ووينة، وربيعة في قرية الهجرة، وآل عمر وآل يحمد ويسمون السادة العراقية في حلي قديم [١].

وعلى ضفة الوادي الشمالية نجد أيضاً العديد من القرى والبطون، مثل : السبطة، والشعب، والحدبة، والغوانمة، والحوادثة، في قرية القضب، والعمور، والخوالدة، والصلابنة بساحل حلي، والعلاونة وقريتهم الكدوة، وقعموصة ويسكنها الهيلة، باشوت ويسكنها بعض السادة، الدبيسية، والدبش ويسكنها الدراهمة[٢].

ومن خلال تجوالنا في ديار حلي اتضح لنا أن (حلي قديم) ، بلدة أمراء بني حرام[٣]، ومازالت على وضعها القديم فلم تبلغ أي مجال من مجالات التنمية، وهذا بعكس الناحية الشمالية فتجدها أحسن حالاً في مجال العمارة والخدمات الأخرى . وما شاهدناه جميلاً في حلي قديم بقاء الحياة الطبيعية القديمة من زراعة وتربية للماشية وحياة يومية أخرى وغيرها [٤].

ويقابل حلي قديم جزيرة أم الصبايا، وبها أراض زراعية، وبئر عذبة الماء، وأملاك زراعية غنية بتربتها ومزارعها، وتبعد عن الساحل حوالي (٣٠) كيلومتراً، وهناك جزيرة أخرى تسمى قطنة [٥] .

---

(١) مقابلة مع محمد علي عمر آل عمر الكناني بقرية حلي قديم يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ) يظهر على مدينة حلي قديم التأخر في تطورها، وربما وجودها عند مصب الوادي وعدم وجود دراسة لتخطيطها وتطويرها ساعد في عدم تنميتها .

(٢) المصدر نفسه، مقابلة مع بعض المشرفين بمكتب التربية والتعليم بحلي مثل : الأساتذة أحمد عمر محمد الفقيه، وعوض بن حسن العمري، وإسماعيل ناصر الكناني، ومصطفى عبد الرحمن الكناني يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ) .

(٣) للمزيد عن أمراء بني حرام، أو أمراء حلي في العصور الإسلامية الوسيطة انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب .

(٤) مشاهدات الباحث يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ) .

(٥) المصدر نفسه .

ج- مدينة القنفذة وما حولها :

مدينة القنفذة ميناء ساحلي أشارت إليه الكثير من المصادر والمراجع، وأسهبت في وصفه وما يحيط به من الجزر البحرية [١] . والغالب على البلاد الممتدة من حلي جنوباً إلى المظيلف ودوقة شمالاً انبساط أرضها ووقوعها على ثلاثة أودية رئيسية هي من الشمال إلى الجنوب : الأحسبة، وقنونا، ويبة. ويقع على هذه الأودية العديد من المدن والقرى المحيطة بالقنفذة، فالمظيلف ودوقة إلى الشمال[٢]، ومدينة القوز[٣]، وقرى أحد بني زيد، وسبت الجارة، وخميس حرب في الناحية الشرقية، والغالب على مدينة القوز أنها ناحية متحضرة تضاهي مدينة القنفذة في نموها وتطورها . أما خميس حرب وسبت الجارة وأحد بني زيد فكان أهلها يعيشون حياة البادية إلى عهد قريب [٤]، ودوقة والمظيلف ليستا عنهم ببعيد، إلا أن طبيعة البلاد الأولى غنية إلى حد ما بغطائها النباتي ووفرة مياهها [٥]، بعكس المظيلف ودوقة التي تعاني من الرمال الزاحفة بعض شهور السنة، لكن عندما تسقط عليها الأمطار تكتسي أرضها بالنباتات والأعشاب الخضراء [٦].

د- العرضيتان :

تقع في الأجزاء الشرقية من محافظة القنفذة، عند سفوح سروات خثعم وشمران وبلقرن الغربية . وتكون تضاريسها من الجبال التهامية التي هي أقل ضخامة وارتفاعاً

(١) انظر القسم الأول من هذا الكتاب لتجد الكثير من التفصيلات، وأسماء المصادر والمراجع التي أشارت إلى بلدة وميناء القنفذة ، مازال ميناء القنفذة يحتاج دراسة علمية موسعة خلال القرون الثلاثة الماضية (ق١١ - ١٤هـ/ق١٧ - ٢٠م) .

(٢) تبعد المظيلف عن القنفذة نحو الشمال حوالي (٤٥) كم، وتبعد دوقة عن المظيلف شمالاً (١٥ كم) مشاهدات الباحث وانطباعاته يوم الثلاثاء (١٤٣١/١٢/١٧هـ) .

(٣) تبعد القوز عن القنفذة حوالي (٣٠ – ٣٥) كم . المصدر نفسه ، القوز من النواحي التي لها تاريخ وذكر في بعض المصادر والمراجع ، أمل أن نرى باحثاً جاداً يدرس تاريخها دراسة علمية توثيقية .

(٤) تقع هذه القرى إلى الشرق من مدينة القنفذة، وتبعد أحد بني زيد عنها (١٥ كم)، وسبت الجارة (٤٠كم)، وخميس حرب (٦٥ كم) . وجمعة ربيعة (ربيعة المقاطرة) تبعد عن خميس حرب تجاه الجنوب حوالي (٦كم) . مشاهدات الباحث يوم الثلاثاء (١٤٣١/١٢/١٧هـ) .

(٥) ذهب الأستاذ / حسين إبراهيم الزحيمي الناشري مشكوراً معي في رحلة من القنفذة إلى دوقة بعد عصر الثلاثاء (١٤٣١/١٢/١٧هـ)، وأفادني ببعض المعلومات المفيدة عن هذه الناحية .

(٦) مشاهدات الباحث خلال شهر ذي الحجة عام (١٤٣١هـ/٢٠١٠م) .

مـن جبـال السـروات، وكانت هـذه المرتفعات مأهولـة بالسـكان قديماً [١]، أمـا اليوم فأصبحـت مهجورة مـن أي استيطان[٢] . ويتخلـل العرضيتين واديا قنونـا ويبة اللذان تزرع على ضفتيهما العديد من الثمار والمزروعات [٣] .

ونشاهـده اليـوم أن أهل البلاد الرئيسين مـا زالوا في أوطانهم التـي سكنوها منذ أزمنـة قديمة، لكن اللافت للنظر هو كـثرة العمالة الوافدة العاملة في جميع القطاعات بالمنطقـة . ونلاحظ أن الهنود والبنغاليين يأتون على رأس القائمة فهم يعيشون في هذه الناحية بنسبة كبيرة . يأتي بعدهم السودانيون، والباكستانيون، والمصريون، والفلبينيون في أعمال الكهرباء وما شابهها، وقليل من اليمنيين والفلسطينيين [٤] .

٢- التركيبة السكانية :

أشرنـا إلى لمحات من التركيبـة السكانية لبلاد القنفـذة في القسم الأول من هذا الكتاب، وذكرنا أن العنصر السائد في البلاد هم العرب بشقيهم العدناني والقحطاني، كمـا ذكرنا وذكر غيرنا مـن الرحالة في القسم الثالث من الكتـاب نفسه وجود عناصر أخـرى قليلة من أصول إفريقية، وتركية، وهندية وغيرهـا . وهذا ليس أمراً غريباً على منطقـة القنفذة، وبخاصـة المدينة والميناء الذي كان يستقبل الكثـير من البشر والسلع التي تصدر إليه من بلدان عديدة في العالم[٥] .

---

(١) للمزيد انظر مذكرة مختصرةرقم (٣١٦) من عبد الله بن حسن الرزقي في (١٤٣١/١٢/١٧هـ) . وتوجد هـذه المذكـرة مع مجموعة من المذكرات والبحوث المختصرة في مكتبة د، غيثان بن جريس العلمية (بحوث ودراسـات غير منشورة) ، والعرضيات اليـوم (٤٢ - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م) محافظة مستقله تتبع إمارة مكة المكرمة .

(٢) للمزيـد عـن العرضيتين، انظر: ابن جريس، القـول المكتوب، ج٢، ص ٤٠٣ وما بعدهـا ، وهناك تفصيلات أخـرى عـن هذه البلاد في بعض اجـزاء كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب الأجزاء (٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٢) (الطبعتان الأولى والثانية) ،

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ليسـت منطقة القنفـذة المنفردة . بهذه الصفة وإنمـا العمالة نجدها منتشرة في أنحـاء البلاد السعودية، والمؤسـف أن المواطـن السعودي في الغالب شخص لا يحب العمل بشكل جـاد وبخاصة الشباب منهم فهم لا يرغبـون العمـل في القطاعات الخاصة كالتجـارة والحرف وغيرها، مع أنها ذات أربـاح جيدة، ولا يمتهنها ويجنـي أرباحها إلا هذه العمالة . مشاهدات الباحث في القنفذة وفي مناطق أخرى من نواحي المملكة خلال العقود الثلاثة الماضية ، وتاريخ العماله وأثرهم وتأثرهم في بلدان السروات وتهامة من الموضوعات الكبيرة التي تستحق أن تدرس وتوثق في العديد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية .

(٥) انظر: القسم الأول والثاني من هذا الكتاب .

ثالثاً : ملامح الحياة الاجتماعية :

١- العمارة :

كانت عمارة القنفذة قديماً من القش أو سعف النخيل وبخاصة في البوادي والقرى والأرياف، أما في الحواضر الرئيسية مثل: بلدة القنفذة والبرك وأجزاء من العرضيتين فتوجد بها الأبنية الحجرية إلى جانب منازل القش[١]. ويغلب على القرى قديماً تقارب المنازل سواءً كانت من القش أو الحجر، وذلك لما يغلب على ذلك الزمن من حاجة الناس بعضهم إلى بعض، فتراهم متعاونين متحابين متآلفين متجاورين في منازلهم وممارسة مهنهم الأخرى، بعكس اليوم الذي اتسع فيه البناء، وتعددت المدن والقرى الكبيرة والصغيرة، وتوفر الخير في أيدي الناس، لكنهم افتقدوا تلك الحياة الهادئة الجميلة التي كانوا يعيشونها في قراهم ومضاربهم، مع قلة ذات اليد وضعف حياتهم الاقتصادية[٢]. وقد شاهدنا وسمعنا عن العديد من النماذج العمرانية القديمة والحديثة، ونوجزها في النقاط التالية :

أ- من خلال السير في بلاد القنفذة لم نر آثاراً كثيرة للقرى القديمة، والذي شاهدناه بعض القرى الأثرية الحجرية المحدودة جداً في بلاد البرك والعرضيتين[٣]، أما باقي المنطقة فلم نشاهد بها شيئاً يذكر . والسبب في ذلك أن غالبية المنازل والقرى كانت من القش، ومن ثم تلاشت لضعف بناء العشش وعدم تحملها عوامل الزمن[٤].

ب- لاحظنا بعض الآثار العمرانية في البرك، وبلدتي القنفذة والقوز، وديار العرضيتين مثل: الآبار الهلالية القديمة، والقلاع والحصون، والطرق القديمة، والمقابر[٥]. وللأسف من يقرأ عن هذه البلاد في القرون الماضية المتأخرة يجدها كانت مليئة بهذه النماذج العمرانية المبنية من الحجر،

---

(١) للمزيد عما ذكره كثير من الرحالة الذين زاروا القنفذة خلال القرون الماضية المتأخرة، انظر: القسم الثالث من هذا الكتاب .

(٢) معاصرة الباحث ومشاهدته لأحوال البلاد الجنوبية من المملكة العربية السعودية خلال العقود الخمسة الماضية ، حبذ أن يظهر باحثين جادين يدرسون التاريخ الإجتماعي المقارن بين الماضي والحاضر في القنفذه أو عموم بلاد تهامة من مكة المكرمة إلى عدن والحديدة .

(٣) مشاهدات وانطباعات الباحث في الفترة الممتدة من (١٦-١٩/١٢/١٤٣١هـ الموافق ٢٢-٢٥/١٢/٢٠١٠م)

(٤) قرأنا وسمعنا عن عشرات القرى ومئات العشش في بعض الأماكن من بلاد القنفذة، لكن عند زيارة بعض تلك الأماكن لم نجد أي شيء يذكر من هذه البيوت القشية .

(٥) مشاهدات وانطباعات الباحث (١٦-١٩/١٢/١٤٣١هـ) .

لكن يد الإنسان امتدت إليها فخربتها وقضت عليها، ونرجو من المؤسسات المعنية بهذه الآثار أن تحافظ على ما بقي، مع ندرته فتقوم على صيانته وحفظه من الضياع .

ج- قرأنا في الوثائق وبعض كتب الرحالة أن القنفذة عرفت المنازل الحجرية المكونة من طابق وطابقين، وربما في بلاد العرضية كانت هناك أبنية تصل إلى ثلاثة أدوار فأكثر[١]، وكانت جميع مواد البناء محليةٍ والبناءون من أهل البلاد، كما أن أثاث تلك المنازل كان في الغالب صنعاً محلياً وبخاصة الأسرِّة، أو الكراسي، التي يطلقون عليها اسم الشباري أو القعائد[٢]، بالإضافة إلَى الأواني المنزلية الأخرى، مثل : أدوات الطعام والشراب، والألبسة والملاحف وغيرها[٣] .

د- حدثني بعض أهالي البرك بأن المنازل الحجرية قديماً كان لها نوافذ واسعة تفتح على الغرب لأجل جلب الهواء من البحر، ومعظم منازلهم لها نوافذ غربية وشمالية وجنوبية، أما الناحية الشرقية فغير مفضلة ربما لرداءة الجو وشدة حرارته في الأجزاء الداخلية من تهامة [٤]. وكذلك الوضع نفسه يجري على بناء العشش ليس في البرك لكن في عموم بلاد القنفذة الساحلية . وكانت تزين منازل القنفذة الساحلية من الداخل، فالبيوت الحجرية تليس بالنورة من حجر البحر المحروق، وتزين بأحزمة ذات زخارف وأشكال مختلفة . أما العشش فتخلب بالطين الأبيض والأحمر، أو بهما معاً[٥]. ويغلب على المنازل قديماً التواضع والمحدودية، فمعظمها حجر وقش، تتكون من غرفة وأحياناً غرفتين، للنوم والجلوس، بعكس الأغنياء والمقتدرين، وهم قليلون، فمنازلهم ربما كانت أوسع وأكبر قليلاً . ويوجد لبعض المنازل مرافق مثل : المثفى، أي مكان للطبخ وغالباً في بيوت الأغنياء،

(١) للمزيد انظر: الأقسام الثلاثة الأولى في هذا الكتاب، وانظر: ابن جريس . القول المكتوب، ج٢، ص ٣٨٧ - ٤٣٢ .
(٢) هناك بعض المتخصصين المحليين في صناعة السرر الخشبية، ويطلق عليهم في مدينة القنفذة وما حولها اسم (القداحة والعقاقين) . مقابلة مع الأستاذ غازي أحمد علي الفقيه بمنزله في مدينة القوز بمنطقة القنفذة يوم الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ) .
(٣) تاريخ العمارة والأطعمة والألبسة والأشربة في بلاد القنفذة جدير بالبحث والدراسة، حبذا لو نرى بعض الباحثين الذين يتصدون لمثل هذه الجوانب البحثية ، كما أرجو أن نرى باحثاً جاداً يدرس اسماء الأطعمة والأشربة واللباس وأدوات الزينة في عموم بلاد تهامة ، ومن يفعل ذلك فأنه سوف يطلعنا على موروث قديم وجيد للتهاميين عبر أطوار التاريخ .
(٤) مقابلة مع عبد الرحمن الهلالي وبعض جماعته في بلدة البرك في (١٤٣١/١٢/١٥هـ) .
(٥) المصدر نفسه .

وحظيرة أو جندب لسكن المواشي، وهذه المرافق ملاصقة أو قريبة للبيت الرئيسي، وربما وجد لبعض منازل الأغنياء مكان يسمى (المطهرة) أو (المبالة)، وهذا يستخدم لقضاء الحاجة، والاغتسال، مع أن غالبية الناس كانوا يخرجون في الخلاء الواسع، أما الاغتسال فقد يكون في أي مكان مستتراً بجوار المنزل (حجراً أو قشاً)[١].

هـ- لم تعرف الأبواب على منازل أهل القنفذة إلا منذ عهد قريب، وربما عاد ذلك إلى سهولة الناس ويسرهم، وعدم وجود ما يهدد أمنهم، كما أن حرارة الجو ربما ساعدت في بقاء المنزل مفتوحاً طوال الوقت حتى يتعرض للتهوية[٢]. وهذا جانب يختلف تماماً عن أهل السراة الذين يحرصون على تركيب أبواب قوية وضخمة على منازلهم خوفاً مما قد يهددهم من أخطار بشرية أو حيوانية أو غيرها[٣].

و- كان وضع العمران في القنفذة بدائياً وبسيطاً إلى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادية)، وبعد أن بدأت تتحسن أحوال الناس المادية أخذوا يتدرجون في تطور العمارة فقام بعض منهم باستبدال بيوت القش القديمة بالصناديق المصنوعة من الأخشاب ثم الحديد المعروف محلياً باسم (الشينكو، أو الزنك)، ولم يستمر ذلك طويلاً، وإنما استبدلت بعض بيوت الصناديق بالبيوت الشعبية المبنية بالبلك، وغالباً تكون أسقفها مغطاة بالخشب والتراب، وغالباً لا يكون لهذه المنازل أحواش[٤].

ومنذ النصف الثاني من تسعينيات القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادية) وصلت آثار صندوق التنمية العقاري، وانتشرت المخططات، وهُيئت الأراضي الصالحة للسكن، وبدأ الناس يحصلون على قروض

---

(١) مقابلة مع غازي أحمد الفقيه في منزله بمدينة القوز الإثنين (١٤٣١/١٢/١٦هـ)، مقابلات مع عبد الرحمن بن عبد الرحيم الهلالي (١٤٣١/١٢/١٧.١٥هـ)، مقابلة مع عبد الله بن حسن الرزقي في ثريبان بالعرضية الجنوبية يوم الأربعاء (١٤٣١/١٢/١٨هـ).

(٢) ذلك يعود إلى توفر الأمن، وربما عدم وجود غرباء يخاف منهم. مقابلة مع غازي أحمد الفقيه في مدينة القوز (١٤٣١/١٢/١٦هـ).

(٣) مشاهدات الباحث في بلاد السراة خلال العقود الخامسة الماضية. وأجرى دراسة مقارنة في الحياة، الاجتماعين بين التهاميين والسرويين خلال القرون الثلاثة الماضية موضوع جديد يستحق أن يصدر في كتاب علمي موثوق.

(٤) مقابلة مع غازي أحمد الفقيه في مدينة القوز في (١٤٣١/١٢/١٦هـ)، مقابلة مع عبد الرحمن بن عبد الرحيم الهلالي في بلدة البرك في (١٤٣١/١٢/١٦.١٥هـ). مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال العقود الماضية المتأخرة.

عقاريــة سكنية، وتطــورت المؤسسات الحكوميــة المشرفة علــى سير البناء والعمران في البلاد، وهكذا تطورت الحياة العمرانية في شتى المجالات[١] .

ز- يشاهد السائــح في محافظة القنفذة اليوم هذه النهضة العمرانية الهائلة، فهناك المنــازل الواسعة والشاهقة في كل ناحية من نواحي المنطقة، بل يرى قيــام معظــم مؤسســات الدولة الإداريــة، وكثير من هــذه الإدارات تمارس أعمالها في مبــانٍ حكومية خاصة، وهناك مؤسسات أخرى في أبنية وعمائر كبيرة مستأجرةً. بل يشاهد الكثير من المشاريع العمرانية الناشئة بالإضافة إلى توفر الكثير من الخدمات الرئيسية مثل : الطرق المعبدة، ومئات الأبنية الجميلة الأخــرى : كالمساجد والجوامع، والمدارس، والكليات، والمستشفيات والمراكــز الصحية الأخرى، والأســواق، والمتنزهات وغيرهــا من العمارات والمنازل والمرافق العامة والخاصة التي يصعب حصرها[٢].

ح- لا يبدو التساوي في نمط وتطور العمارة في بلاد القنفذة، فالمراكز الكبرى مثل مدينتي القنفذة والقوز تحظى بنصيب الأسد مما تم الإشارة إليه في النقطة السابقــة . وهذا شيءٌ بديهــي لأن هاتين الناحيتين هما المركزان الحضاريان الرئيسيان لبلاد القنفذة منذ أمد بعيد، وبخاصة المدينة الرئيسية (القنفذة)[٣]. والمراكــز والقــرى والأريــاف الأخرى نالهــا الكثير من أنمــاط التنمية العمرانيــة التي تعيشها المملكة العربية السعودية، لكنها مازالت أيضاً بحاجة إلى تطوير وتنمية أكثر، وهذا الواجب المعقود على محافظ ومحافظة القنفذة الرئيسة، وكذلك على إمارة مكة المكرمة التي تتبع لها هذه المحافظة[٤].

---

(١) معاصــرة الباحــث لهذا النمــو والتطور الذي تمر به جميــع مناطق المملكة العربيــة السعودية خلال الأربعة العقــود الماضيــة (١٣٩٠-١٤٣٢هـ/ ١٩٧٠-٢٠١٠م) ، تاريخ التطور والتنميــة لبلاد السراة وتهامة منذ بداية هــذا القرن (١٤٠٠هــ / ١٩٨٠م) حتى الآن (٤٢ - ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م) موضــوع جديدة يستحق أن يدرس ويوثق في عديد من البحوث العلمية .

(٢) مشاهــدات الباحث لهــذا النمو والتطور الذي تمر به مــدن وحواضر المناطق الجنوبية مــن المملكة العربية السعوديــة . والواجب علــى الباحثين والمؤرخين والدارســين لتاريخ وحضارة البلاد، وأيضــاً على مؤسسات التعليــم العالي ممثلــة في الكليات والجامعة أن تولي مــا تمر به البلاد من نموٍ وتطورٍ كبــيرَ اهتمامٍ فيوثق، ونشجع الباحثين والدارسين على دراسته وحفظه .

(٣) مدينــة القنفــذة حاضرة تاريخية يجب الاهتمام بها وتنميتها، وتوفــير جميع الخدمات لسكانها، وهذا مما سيعــود بالفائــدة والنفع على عموم ســكان المحافظة ، آمل أن نراها منطقة كبــيرة مثلها مثل باقي المناطق الرئيسية في المملكة العربية السعودية .

(٤) هذا ما يجب العمل عليه من قبل أهل هذه البلاد، ومحافظ ومحافظة المنطقة، وكذلك الإمارة الرئيسية في مكة المكرمة .

٢- الأطعمة والأشربة:

موضوع الأطعمة والأشربة جانب واسعٌ، ويختلف من منطقة لأخرى، لكن جميع الأشربة والأطعمة في القرون الماضية كانت ترتكز على ناتج السكان المحلي[١]. فالمزارعون يقتاتون مما تنتجه مزارعهم، وكذلك البدو الرعاة، وغيرهم من التجار، والصيادين كل حسب بيئته وما يقوم بامتهانه من أعمال[٢] . والملاحظ على بلاد القنفذة أنه يوجد بها الزرع والمزارعون، والبدو الرعاة، وأصحاب التجارات وكثير من الحرف والصناعات التقليدية الأخرى، ومن ثم لم يكن لدى أهل القنفذة مشكلة في جلب أطعمتهم وأشربتهم [٣]، لكنهم أيضاً يتفاوتون في درجة الغنى والفقر، وهذا مما يؤثر على نوعية الطعام والشراب الذي يتناولونه[٤].

فأما المدن والمراكز الحضارية، كالبرك، والقوز، والقنفذة وغيرها فعرفت بعض الأطعمة والأشربة التي تصدر إليها من خارج حدود البلاد، أو المناطق الداخلية كبلاد الخبت والعرضيتين وما جاورهما، وعلية القوم والمقتدرون وهم قليلون، كانوا يمتلكون الأطعمة المتنوعة من اللحوم، والحبوب، والحلوى وغيرها . أما عامة الناس في المراكز الآنفة الذكر، وعموم بلاد القنفذة فكانوا لا يجدون إلا النزر اليسير مما يسدون رمقهم به، وأحياناً كان بعضهم فقراء معوزين لا يجدون شيئاً [٥] . ونجد عشرات الوثائق في منتصف القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادي) تشير إلى عشرات الأسماء من فقراء القنفذة، الذين كانت توزع عليهم الصدقات من قبل الدولة السعودية ممثلة في وزارة المالية[٦].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الأطعمة والأشربة في أجزاء من منطقة عسير، انظر: ابن جريس . عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٥٨- ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) بلاد القنفذة غنية بخيراتها فهي تجمع بين التضاريس المرتفعة، والأراضي السهلية الزراعية، وكذلك السهل الساحلي البحري . مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال زيارات عديدة لمنطقة القنفذة.

(٤) أصحاب المال النقدي أو الزراعي أو التجاري أو الحرف كانوا أفضل حالاً من غيرهم من عموم السكان الذين لا يجدون مصدراً يقتاتون منه .

(٥) كانت حياة الأوائل فقيرة لقلة مصادر العيش، بل كان الناس يقاسون حياة صعبة وشاقة في سبيل كسب أرزاقهم، بعكس وقتنا الحاضر فقد فاض الخير في كل مكان وتعددت الأشربة والأطعمة حتى أصبحنا نجد صعوبة كبيرة في حصر أنواعها ومكوناتها .

(٦) كثير من هذه الوثائق غير المنشورة ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية، الوثائق العامة (ق١٤هـ/٢٠م)، ج ٣، ص ١٧١ .

وحتى لا نخوض كثيراً في هذا الجانب[١]، ونركز حديثنا على ما سمعناه وشاهدناه، فإننا نسرد بعض الأطعمة القديمة في منطقة القنفذة، والتي تلاشت واندثر معظمها، وهي على النحو التالي :

أ- الفطير والخمير:

خبز غير مخمر يصنع من حبوب الذرة أو الدخن . أما الثاني : فهو نفس الطعام، لكن بعد مروره بمرحلة الخميرة . وأحياناً يقدم معه السمك والزيت، وقد يعمل من الخمير والفطير وجبة العصيد وتقدم مع السكر والسمن والعسل[٢] .

ب- المخردل :

وجبة نادرة أيام الجوع، وغالباً تخلط أوراق السلع مع خمير الذرة، كي تزيد كميته، ومن ثم يطبخ ويؤكل[٣]. وقد لا يتورع بعض الفقراء والمعوزين من أكل أوراق الأشجار ولحائها، وربما أجبرته الظروف على أكل الميتة، أو اللجوء أحياناً إلى السرقة كي لا يفقد حياته[٤].

ج- الفحيقة، والسحينة، والعربدة :

الأولى : حب دخن يحمص ويطحن، ويضاف عليه حب السمسم بعد التحميص، ويضاف عليه قليل من السكر في القرى والحواضر. أما في البادية فلا يضاف عليه أي شيء . وهو في هيئة مسحوق، ويؤكل سفاً ويبقى لفترة طويلة صالحاً للاستخدام[٥].

الثانية : السحينة وهو حب السمسم يحمص ويسحق ثم يضاف عليه السكر والعسل، وربما يقلى السمسم ثم يضاف عليه السكر ويؤكل مع بعض المشروبات، وتعرف هذه الأكلة بـ (السمسمية)[٦].

---

(١) موضوع الطعام والشراب في القنفذة بحث جيد وجدير بالدراسة، حبذا أن نرى من إخواننا أو طلابنا في برامج الدراسات العليا من يدرسه بطريقة علمية أكاديمية جيدة .
(٢) مقابلة مع كل من غازي أحمد الفقيه وعبد الرحمن الهلالي في (١٤٣١/١٢/١٦هـ).
(٣) مقابلة مع عبد الرحمن بن عبدة الهلالي في منزله ببلدة البرك (١٤٣١/١٢/١٦-١٥هـ)
(٤) يحدثنا الأوائل عن العوز والفقر الذي أصابهم وأصاب من قبلهم، وكيف كانوا يهيمون في الأرض بحثاً عن سد رمقهم، ويقال إن بعضاً منهم كان لا يتورع عن السرقة، لكسب لقمة عيشه .
(٥) مقابلة مع غازي الفقيه في القوز، وعبد الرحمن الهلالي في البرك في(١٤٣١/١٢/١٦هـ).
(٦) المصدران نفسهما .

أما الثالثه : العربدة، وربما سميت (العريكة)، فهي سمسم مع التمر يطحن بعضه مع بعض ويضاف إليه عيش الخمير . وهذه الأطعمة الثلاثة الآنفة الذكر غالباً ما يتم تناولها في وجبة الإفطار[١].

د- الخوان، والخضير، والرضيضة :

الأول : يؤخذ حليب البقرة أو الشاة بعد الولادة مباشرة، ويوضع على نار هادئة فيتخثر حتى يكون أشبه بالجبنة، ثم يوضع عليه السكر وبخاصة في الحواضر، وهذه وجبة مفضلة حتى اليوم[٢].

الثاني : الخضير: يؤخذ من ثمار الذرة الخضراء، ويستخرج الحب ويطحن، وبعدها يخبز على هيئة فطير .

الثالثة : الرضيضة، وهو نفس الحبوب السابقة، لكنها تطبخ على نار هادئة، ويضاف إليها الحليب والسكر وتعد من الأكلات المحببة في القنفذة[٣] .

هـ- وهناك أكلات أخرى عديدة مثل :

الصيادية من سمك البحر، والمدهوس : الخمير مع السمسم . والمشغوت: في بلاد العرضيتين، ويصنع من حب الذرة أو الدخن ويضاف إليه السمن والعسل[٤] . والثريف، من خبز الدخن أو الذرة ويفت في صحفة أو وعاء آخر ويضاف عليه لبن الماعز أو الضأن، وأحياناً يوضع عليه السكر وهو من أجود الأكلات الشعبية . وعيش المرق، يطبخ اللحم، ثم يفت خبز الدخن أو الذرة في المرق ويؤكل، وهو ما يعرف عند العرب قديماً باسم (الثريد) . والحنيذ: وهو من الأكلات القديمة والمشهورة في عموم المنطقة الجنوبية [٥].

---

(١) المصدران نفسهما .
(٢) المصدران نفسهما .
(٣) المصدران نفسهما .
(٤) مذكرة من عبد الله بن حسن الرزقي بتاريخ (١٤٣١/١٢/١٧هـ) . صورة منها ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية . (بحوث ودراسات غير منشورة) رقم (٣١٦) ص ٣١٠-٣٢٢، منذ صدرت الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ / ٢٠١١م) وأنا ابحث عن باحثة أو باحث من بلاد القنفذه وما حولها كي يورخ لتاريخ هذه البلاد الحضاري خلال العصر الحديث والمعاصر ، آمل أن نرى من يقوم بهذا العمل العلمي في القريب العاجل.
(٥) المصدر نفسه، للمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٥٨ وما بعدها .

أمـا الأشربة قديماً فكانت مـن منتوجات أهل البلاد الحيوانيـة والزراعية، وربما وجـد بعض المشروبات المحليـة أو المستوردة في مدينـة القنفذة، لأنها مينـاء يرد إليها الكثير من التجار الداخليين والخارجيين [١].

و- معظم الأطعمة الآنف ذكرها اختفت:

أو أصبحت تمارس على نطاق ضيق، وذلك لما دخل البلاد وعرف الناس من الأطعمة والأشربة التي يصعب حصرها، والتي جلها أصبح مستورداً من خارج منطقة القنفذة، ولم يعـد عند القنفذيين أي اهتمام كبير تجاه تلك الأطعمة بل أصبحت المطاعم بجميع أحجامها وأنواعها تنافس الأسر في طهي عشرات الأصناف من المأكولات والمشروبات[٢].

ز- كان للأطعمة في الماضي نظام وقواعد في الطبخ والإعداد:

بـل كان لها أوانٍ محلية وصحيـة يطهى فيها الأكل[٣]. أما اليوم فحل محل القديم أوانٍ حديديـة وبلاستيكية ضررها أكثر من نفعها، بـل إن تناول الطعام واجتماع أفراد الأسـرة الواحدة لم يعد ملتزماً بنظـام أو قواعد معينة للاجتماع على الأكل كما كان في السابـق، بل اضطربت أوقات الناس ونظام حياتهم، وصاروا يعيشون حياة التمدن التي يخالطها الكثير من الفوضى وعدم السير على منهج متزن سليم وصحي[٤].

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة مدينة القنفذة انظر: الأقسام الثلاثة الأولى من هذا الكتاب .

(٢) هذه ظاهرة عامة في جميع مناطق البلاد السعودية، بل في جميع مناطق العالم . وموضوع الأطعمة والأشربة القديمة والحديثة في بلاد القنفذة جدير بالبحث والدراسة، ونتمنى أن نرى من يدرس هذا المجال بطريقة علمية أكاديمية جادة .

(٣) كانـت أواني الطهـي قديماً صحية في صنعهـا ومكوناتها، ومن يزر بعض المتاحـف المحلية في جنوبي البلاد السعوديـة يشاهـد عشـرات الأدوات الخشبيـة والفخارية والحديديـة المحلية، الخاصة بالأعمـال المنزلية المختلفة كطهي الطعام وتقديمه وأكله .

(٤) حبذا لو تتضافر جهود المؤرخين والأطباء في دراسة ومقارنة أدوات الطعام والشراب مع الحرص على إبراز السلبيات والإيجابيات التاريخية والطبية لكل عصر.

٣- الألبسة والزينة :

كانت الألبسة في القنفذة بسيطة ومحدودة، وأهل الحاضرة أفضل حالاً من سكان البوادي والأرياف، وذلك بسبب التجارة والتجار الذين يرتادون سوق مدينة القنفذة فيجلبون معهم بعض الأقمشة والمنسوجات التي يمتلكها المقتدرون دون الفقراء[١].

(*) وفي الفقرات التالية نناقش أهم الألبسة التي عرفها القنفذيون، وهي على النحو التالي :

أ- لباس الرأس :

يغطي الرجال رؤوسهم بالعمامة، وتعرف أيضاً بـ (الصمادة)، وكذلك العمامة ولها طرق عديدة في اللبس، فقد تلف على الرأس، وربما تسدل على الصدر أو الكتفين من الخلف، وقد يُحتنك بها وتلف من تحت الذقن وتربط على أعلى الرأس أو جانبي الوجه . وتصلح العمامة للذكور صغاراً وكباراً، وهي عند عموم العرب لباس هام وضروري للرجال[٢]. وفي بادية القنفذة يوضع لباس يعرف بـ (القوبع) مصنوع من سعف النخل، وتستخدم المظلة، أو ما يعرف بـ (الطفشة) عند أهل عسير، وهي لباس هام أثناء ممارسة أعمال الرعي والزراعة، ومن مهامها حماية الرأس من الشمس أو المطر. وفي بعض نواحي القنفذة يلبس الأطفال البرنس على الرأس، وهو شبيه بالزي المغربي . أما المرأة فتلبس المقلمة أو القطاعة التي تغطي بها رأسها وعنقها، وقد تتزين بالريحان وبعض النباتات العطرية، أما الرجال فقد يتركون شعورهم مسدلة ويزينون رؤوسهم بعصابة من النباتات العطرية المختلفة[٣] .

ب- لباس الجسم :

يلبس الرجال القميص أو الثوب المشجر المصنوع من نوع (أبو مبروم)، أو (أبو تفاحة) وفي التسعينيات من القرن(١٤هـ/٢٠م) كانوا يرتدون قماش أبو

---

(١) مدينة القنفذة ذات سوق رائج بين اليمن والحجاز، كان يرتادها تجار وتجارات عديدة تأتيها من أقطار مختلفة . للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٣٣١ وما بعدها ، حبذا أن نرى باحثاً جاداً فيدرس تاريخ التجارة في القنفذه خلال العصر الحديث (ق١٢ - ١٤هـ/ ق١٨ - ٢٠م) .

(٢) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ العمامة، انظر: غيثان بن جريس " العمائم تيجان العرب " مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي . العدد (٨) شهر المحرم (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٦٦-٧١

(٣) انقرضت هذه العادة في عموم منطقة القنفذة لكنها مازالت تمارس عند العديد من سكان تهامة عسير وقحطان وأجزاء من بلاد جازان.مشاهدات الباحث وجولاته في هذه النواحي خلال السنوات الماضية.

غزالين[١]. وهذا اللباس يصبغ عند رجال البادية . كذلك يلبسه النساء بعد صبغه باللون الأسود أو الأحمر، أو الأصفر، أو النيلي الأزرق . ويحرص الرجل على لبس الحزام، أو الكمر، والسكين أو الجنبية، ورباط للوسط مصنوع من السيور الجلدية يعرف بالجديلة، ويعتقد أغلب الرجال أنها تحمي الوسط من أي أذى مثل الفتق وغيره أثناء حمل الأحمال الثقيلة، ولأهمية الجديلة عند سكان منطقة القنفذة، صار هناك مثل شعبي يقول : **مقطوع الجديلة عيرته زنبيلة**، وهذا مما يدل على وجوب الحرص على لبسها منذ الطفولة إلى سن الشيخوخة [٢].

ومن ألبسة الرجال الحوكة، وهي قطعة واحدة تلف على أسفل الجسد، واستخدام المصنف والسراويل قليل لعدم توفرها، وغالباً لا يلبسها إلا المقتدرون مادياً[٣]. كما تلبس الصديرية (السديرية)[٤] وتغطي الجزء الأعلى من الجسم، وحل محلها لباس (الفنلة) . أما الأطفال ما دون الخامسة فكانوا في الغالب عراة، ولا يغطى من أجسامهم إلا ما يستر العورة بلباس يدعى (الشذرة) وغالباً يربط على عورة الطفل بالجديلة[٥].

أما لباس النساء فهن إلى جانب لبس القميص (الثوب) المشجر المصبوغ يلبسن الصدرة (السدرة) وهو لباس أسود يغطي الجسد من العنق إلى أسفل الركبة، وربما أطلق عليه درعة في بعض الجهات من بلاد القنفذة، وأحياناً يلبس تحت الصدرة، صديرية نسائية، وعلى الجزء الأسفل من الجسم الحوكة الملونة[٦] . ويتزين النساء بالخواتم في أصابع اليد وأحياناً الرجل، والمسكة في الرسغ، والأوضاح في العضد، وأحزمة الفضة وربما الذهب إذا وجد على الخصر[٧]، والحجول في الأرجل، والمعاصم

(١) للمزيد عن تاريخ الألبسة والزينة في منطقة عسير وما جاورها انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٦٥-٧٤ .

(٢) مقابلة مع عبد الرحمن بن عبده الهلالي في بلدة البرك في (١٥-١٦/١٢/١٤٣١هـ)، مقابلة مع غازي أحمد الفقيه في مدينة القوز في (١٦/١٢/١٤٣١هـ)، مقابلة مع عوض بن حسن العمري من أعيان قبيلة العمور في وادي حلي في (١٦/١٢/١٤٣١هـ) .

(٣) مقابلة مع غازي أحمد الفقيه في (١٦/١٢/١٤٣١هـ) . مقابلة مع عوض بن حسن العمري بوادي حلي في (١٦/١٢/١٤٣١هـ) . والمصنف : نوع من الألبسة الخارجية التي تلف على أعلى الجسد وبخاصة الرأس والكتفين والصدر والظهر.

(٤) المصدران نفسهما . ربما تلفظ السديرية، أو الصديرية، والأخير هو الصحيح نسبة إلى منطقة الصدر التي يغطيها جزء كبير من هذا اللباس .

(٥) مقابلة مع غازي الفقيه وعوض العمري في (١٦/١٢/١٤٣١هـ) .

(٦) المصدران نفسهما ، مقابلة مع عبد الرحمن بن عبده الهلالي في (١٥-١٦/١٢/١٤٣١هـ).

(٧) المصادر نفسها .

على الرأس، والخرص في الأذنين، والزمام في الأنف، والذباذب والتنابي المصنوعة من العسيلي والظفار والأحجار الكريمة في الرقبة (العنق)[١].

ج- لباس الأرجل،

غالبية الناس أيام الجوع والفقر يمشون حفاة، ومن توفر له أحذية فغالباً تكون من السعف، أو جلود البقر والجمال، أو البلاستيك المعروف محلياً بـ(الطرنبيل)[٢].

ومنذ العقود الأخيرة في القرن (١٤هـ/٢٠م) بدأت أسواق القنفذة تستقبل بعض الألبسة من خارج بلادها، وبدأ الناس يسافرون إلى خارج أوطانهم، ويجلبون ألبسة متنوعة، وهكذا تطور الحال حتى جاء هذا القرن (١٥هـ/٢٠-٢١م)، وفاض الخير على الناس، وصار جميع الناس في بحبوحة من العيش، ولم نعد نسمع أو نرى الألبسة السابقة الذكر إلا في المتاحف المحلية، بل اندثر أغلبها وضاع، وأصبحت الأسواق مليئة بمئات من الألبسة الداخلية والخارجية النسائية والرجالية[٣].

(١) المصادر نفسها ، حبذ أن نرى باحثاً مجتهداً يعكف على إصدار معجم لغوي عن أسماء الألبسه وأدوات الزينة في بلاد تهامة من مكة المكرمة إلى جازان .

(٢) المصادر نفسها .

(٣) إجراء دراسة تاريخية مقارنة على الألبسة والزينة قديماً وحديثاً في القنفذة،أو في البلدان الجنوبية من البلاد السعودية من المواضيع الحضارية الجيدة،، حبذا أن نرى أحد طلابنا أو طالباتنا في برامج الدراسات العليا في جامعة الملك خالد، أو في جامعات نجران، أو جازان، أو الباحة، أو الطائف من يتخذ هذا العنوان موضوعاً لبحثه في أطروحة درجة الماجستير أو الدكتوراة، مع الحرص على توضيح ما طرأ على عادة اللباس في وقتنا الحاضر من سلبيات وإيجابيات .

٤- عادات وتقاليد أخرى:

منطقة القنفذة متباعدة الأطراف، متنوعة التضاريس[١]، وهذا مما أوجد تنوعاً في أعرافها وتقاليدها، وأعيادها ومناسباتها، وأفراحها وأتراحها وأحزانها، ومما جعل أهلها يمارسون الكثير من التقاليد والعادات والمراسيم الشعبية التي تخضع لقوانين وضوابط لا يعرفها إلا أهل البلاد[٢]. والناظر في الوثائق المحلية يجدها مليئة بالتفصيلات التي تصف نظام الحياة في معظم عادات وتقاليد أهالي القنفذة[٣]. كما أن عادات الزواج، والتعاون والتكافل، وتعايش الناس في جميع أمورهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والفكرية هي الأخرى غنية بأعرافها وتقاليدها الجميلة، مع أن ظروف الناس آنذاك كانت صعبة وقاسية، إلا أنهم متفائلون بما سخر الله لهم من السير في مناكب بلادهم[٤]. وهذا ما تلمسه عندما تلتقي بالمسنين الذين عاصروا الماضي، فتجدهم يحنون لذلك الزمن الطيب لما كان في أهله من النقاء والطيبة والرضا بما رزقهم الله[٥].

واليوم أصبحت الكثير من عادات الأوائل مهملة منسية، وانغمس عموم الناس في عادات وتقاليد أخرى جديدة تختلف عما عاشه آباؤهم وأجدادهم، والفارق الجوهري في توفر الخير والرزق عند عموم الناس، لكن كثرت الصعوبات والمتاعب الجسدية والنفسية والأخلاقية، بل تلك الأيام الحلوة القديمة حل محلها أيام صعبة قاسية، فازدادت الفرقة والقطيعة بين الناس، واشتد الحرص والصراع على حطام الدنيا، وضاع التعاون والاحترام المحكوم بإطار الأخوة في الله، وصارت المصلحة هي المحرك الرئيسي لتعايش الناس وتقاربهم، وانتهى الأمر إلى فوراق كثيرة بين حياة الناس في الماضي والحاضر[٦].

---

(١) انظر: القسمين الأولين من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ الحياة الاجتماعية، والتقاليد والأعراف، والفنون والأدب الشعبي في بلاد القنفذة من الموضوعات الجديدة والجديرة بالبحث والتقصي والدارسة . حبذا أن نرى من يوليها كبير اهتمام وخاصة من المهتمين والمؤرخين وعلماء الاجتماع وغيرهم .

(٣) تم الاطلاع على مئات الوثائق التي تعكس سير نظام الحياة الاجتماعية في منطقة القنفذة، وأغلبها يعود إلى القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) .

(٤) تاريخ بلاد القنفذة الاجتماعي في العصر الحديث (ق١٢-١٤هـ/١٨-٢٠م) جدير بالبحث والدراسة والتحليل، حبذا أن نراه موضوعاً لرسالة دكتوراه في إحدى جامعاتنا السعودية .

(٥) هذا الإحساس نجده عند معظم الأوائل الذين التقينا بهم في نواح عديدة من جنوبي البلاد السعودية (الطائف، والقنفذة، والباحة، وبيشة، وأبها ، وخميس مشيط، ، ومحايل عسير، وجازان ، ونجران) . مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال العشر السنوات الماضية ١٤٢٠-١٤٣١هـ/ ٢٠٠٠-٢٠١٠م) .

(٦) اليوم الناس في رخاء وأمن واستقرار، لكن ظهر في المجتمع الكثير من السلبيات الاجتماعية، وأصبح كل بيت وأسرة لا تخلو من هذه المؤثرات السلبية في المطعم والمشرب، واللباس، والقيم والأعراف وغيرها مما يصعب حصره .

(*) من خلال تجوالي في ديار القنفذة، وقراءتي وسماعي للكثير عن عاداتهم وتقاليدهم المختلفة، وضحت لي عدة أمور نذكرها في النقاط التالية :

أ- إن أهل الساحل يختلفون في كثير من عاداتهم الاجتماعية عن سكان الداخل في العرضيتين وما جاورها، فالغالب على سكان السواحل البساطة والسهولة في ممارسة حياتهم اليومية، وذلك يعود إلى طبيعة البحر، وما يعود على جيرانه من فوائد قوامها الاسترخاء والراحة، بعكس القاطنين في عطوف الجبال والأودية فهم أسرع انفعالاً وتأهباً واستعداداً لمصارعة الحياة[١].

ب- تختلف ألعاب وفنون أهل الساحل عن سكان الجبال والمرتفعات الداخلية. ففي السهول الساحلية يظهر على فلكلورهم ورقصاتهم وأغانيهم وأهازيجهم تأثير الفن والفلكلور الإفريقي، وهذا مما يؤكد على التواصل الثقافي الحضاري بين جانبي البحر الأحمر . في حين أن سكان الداخل تجدهم أكثر تأثراً بأهالي الجبال والسروات الممتدة من الحجاز إلى اليمن[٢]. وهذه المؤثرات على الفريقين ربما امتدت في الماضي إلى الكثير من مجالات الحياة الاجتماعية مثل: اللغة واللهجات، والألبسة، وفن العمارة، وعادات الزواج، والمآتم وغيرها [٣].

ج- بإجراء مقارنة على الألعاب الرياضية[٤] والرقصات الشعبية عند سكان الساحلين الشرقي والغربي للبحر الأحمر، وعند سكان سفوح السروات الغربية، وأعالي جبال السروات من الطائف حتى صنعاء، تأكد لنا ما ذكرناه في النقطة السابقة، واتضح أن ثمة ألعاباً وفنوناً في شرق إفريقيا تتشابه مع مثيلاتها في سواحل منطقة القنفذة وما جاورها . وكذلك الحال نفسه مع

(١) مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال تجواله ومعرفته بلاد تهامة والساحل خلال الأربعين عاماً الماضية .
(٢) زيارة الباحث لبعض بلدان شمال وشرق إفريقيا مثل: السودان، وجنوب مصر، وتجواله في مناطق عديدة من ساحل البحر الأحمر وجبال السروات خلال السنوات العشر الماضية .
(٣) هذه مواضيع جديرة بالبحث والدراسة حبذا أن يظهر من يدرس هذه الجوانب دراسة علمية أكاديمية.
(٤) يوجد في بلاد القنفذة خلال القرون الماضية المتأخرة الكثير من ألعاب التسلية والرياضة للنساء والرجال، الصغار والكبار، وهي ألعاب شعبية تختلف عن ألعاب الرياضة المعروفة اليوم . وهذا الموضوع جدير بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى في المستقبل من يتخذ هذا الموضوع بحثاً لدراسته لنيل درجتي الماجستير أو الدكتوراه .

أهالي بلاد العرضيتين وأبناء عمومتهم في أعالي جبال السروات[١].

د. اتضح لنا من خلال زيارتنا الأخيرة لمحافظة القنفذة الاختلاف الكبير جداً بين عادات وتقاليد جيل اليوم، وبين أعراف وتقاليد الأوائل من الآباء والأجداد. والذي يخشى منه أن تضيع وتختفي تماماً تلك القيم والمبادئ والتقاليد القديمة الجميلة، ويحل محلها أعراف مستوردة من أقطار عديدة في العالم، وهذا مما سيعرض هوية البلاد إلى المسخ والتشويه. وما يجري في ديار القنفذة تجده سائداً في عموم البلاد السعودية، بل في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية، ولذ فالمسؤولية كبيرة على جميع سكان البلاد، أفراداً، وجماعات، ومسؤولين ومؤسسات أن تبذل الجهود في المحافظة على كل أصيل وجيد من أعراف وتقاليد وموروث شعبي قيم وجميل[٢].

(١) مشاهدات وانطباعات وتجوال الباحث في بلاد تهامة والسراة، وزيارة بعض أجزاء ساحل البحر الأحمر الغربي خلال السنوات الماضية المتاخرة.

(٢) الانفجار الذي أحدثه عالم الاتصالات، وكذلك دخول الكثير من الثقافات والتقاليد الدخيلة إلى بلادنا، وعدم حصانة الفرد والأسرة السعودية كل هذا ساعد في استشراء وتأثير هذا الغزو الحضاري الخارجي، ومن ثم إذا لم يقابل من الداخل بالبناء وتسليح الفرد والأسرة بسلاح الفكر والثقافة الإسلامية النقية الطاهرة، وكذلك اليقظة لكل ما هو دخيل علينا وغث غير مفيد، ومقاومته بأسلوب هادئ وبناء، وإلا فإن العاقبة سوف تكون وخيمة.

رابعاً : ملامح الحياة الاقتصادية :

عرف سكان القنفذة العديد من الجوانب الاقتصادية مثل الجمع والالتقاط، والصيد، والزراعة، والتجارة، والحرف الصناعية والتقليدية، وهذا ما سوف نناقشه في النقاط التالية :

١- الجمع والالتقاط :

مارس سكان العرضيتين مهنة الاحتطاب من جبالهم وأوديتهم، بل كانوا على اتصال ببلاد الساحل أوبني عمومتهم في أعالي السروات أثناء حصاد المزروعات كي يحصلوا على بعض الهبات والعطايا من أصحاب المزارع أثناء حصادها[١]. كما لا تخلو بلادهم من الأشجار المثمرة التي تتساقط ثمارها قبل نضجها، ومن ثم فهم يسعون إلى جمع تلك الثمار، وأحياناً كان الفقراء والمحتاجون يحصلون على بعض من تلك الثمار الساقطة[٢] . وكان أهل الساحل في أودية ذهبان، ويبة، وقنونا، والأحسبة، يقومون بالتقاط التمر وثمار الأشجار الأخرى أثناء سقوطها، أو وقت نضجها[٣]. وهناك بعض القواعد والأعراف المدونة عند سكان البلاد، وتشتمل على بنود تقنن طرق الجمع والالتقاط للاحتطاب من الأراضي المشاعة، أو من المزارع والبساتين المملوكة، والهدف من ذلك حماية البيئة من الاحتطاب الجائر، وحماية الممتلكات الخاصة من جور واعتداء المحتاجين والفقراء أو المتسولين[٤] .

لم يبق اليوم أي ممارسة لمهنة الجمع والالتقاط التي كانت سائدة في الماضي، وإنما هناك أفراد يجمعون الحطب من الجبال لأجل بيعه في الأسواق، أو إحراقه حتى يتحول إلى مادة الفحم، ثم يصدر إلى الأسواق الأسبوعية أو اليومية[٥]وهناك بعض

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن مهنة الجمع والالتقاط وغيرها في بلاد عسير وما جاورها من المناطق، انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ١٢٦-١٢٧ .

(٢) مشاهدات الباحث ومقابلته للعديد من الأشخاص في كل من العرضيتين، والقوز، والقنفذة، وحلي، والبرك في الفترة من (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ الموافق ٢١-٢٥/١٢/٢٠١٠م).

(٣) المصدر نفسه .

(٤) في حوزة الباحث بعض الوثائق الخاصة بمهنة الجمع والالتقاط، وأغلبها من نواحٍ عديدة في عسير والقنفذة ونجران .

(٥) يوجد في بلاد القنفذة من السكان الأصليين من يمارس هذه المهنة، والاقتيات من كسبها . مشاهدات الباحث وانطباعاته في (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ) .

المزارعين، وأغلبهم من العمالة الوافدة[١]، يجمعون محاصيل الطماطم والبطاطس والخضار وبعض الفواكه ويبيعونها [٢].

٢- الصيد:

كان سكان الساحل ومازالوا يمارسون صيد الأسماك، والصيادون لهم أعراف وتقاليد وفنون في الصيد البحري، بل كان لهم شيخ يحتكمون إليه في مشاكلهم وقضاياهم. وتتفاوت سفنهم وقواربهم في الأحجام، والأنواع، والطاقات الاستيعابية[٣]. وبين صيادي البحر من التعاون والتكاتف ما يجعلهم يقفون إلى جانب من يحل به كارثة أو ضائقة، ومن لا يستطيع ممارسة الصيد لمرض أصابه، أو مشكلة حلت به فإنهم يساعدونه ويشاركونه فيما جمعوه من الصيد حتى يعود إلى سالف عهده، ويتجاوز محنته[٤].

أما الصيد البري فكان يمارس بشكل واسع في المناطق الداخلية من أرض القنفذة، وبخاصة في ديار العرضيتين. ويشير كبار السن إلى أن ديارهم كانت موطناً للوعول، والغزلان، والطيور بأنواعها، وكان بعض السكان يمارسون الصيد بطريقة جائرة، وهذا ما أثر على انقراض الكثير من الطيور والحيوانات البرية هناك[٥]، وإذا كانت الهيئة العامة لحماية الحياة الفطرية تبذل جهوداً كبيرة للحد من صيد الطيور والحيوانات، فإن ذلك لم يُحَدِ كثيراً لعدة أسباب هي :

أ- عدم الوعي عند بعض الناس ممن لازالوا يمارسون الصيد البري من باب التسلية وليس الحاجة .
ب- عدم وجود رقابة واسعة وشديدة على الممارسين للصيد، وعدم تطبيق العقوبة الشديدة والصارمة للمتمادين والمستهترين في ممارسة هذه المهنة.
ج- تأسست مؤسسة الهيئة العامة لحماية الحياة الفطرية مؤخراً، بعد أن قضي على الكثير من الطيور والحيوانات الهامة والنادرة[٦].

---

(١) معظم هؤلاء العمالة من المصريين واليمنيين . مشاهدات الباحث في (١٦ - ١٤٣١/١٢/١٧هـ) .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) هذا ما شاهدناه وسمعناه من بعض الصيادين في مراسي البرك والقنفذة في (١٦ - ١٤٣١/١٢/١٨هـ).
(٤) المصدر نفسه .
(٥) مشاهدات الباحث ومقابلة مع بعض سكان العرضية الجنوبية في (١٤٣١/١٢/١٧هـ).
(٦) هذا ما سمعناه من بعض المسنين في بلاد القنفذة وعسير خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر ذي الحجة عام (١٤٣١هـ) . كما شاهدنا بعض الصيادين البريين في العقود الثلاثة الماضية، وهم يمارسون القنص والاصطياد من باب الرياضة والتسلية .

٣- الزراعـــه:

كانـت الزراعـة تمارس في القنفـذة على نطاق واسـع، ومن يستقـري أقوال بعض الرحالة في القسم الثالث من هذا الكتاب يجدهم يذكرون الكثير من المحاصيل الزراعية الموجودة في أودية دوقة، والأحسبة، ويبة، وقنونا [١]. ومن خلال تجوالي في هذه الأودية اتضح لنا صدق أقوالهم [٢]، ثم إن الناظر في الوثائق المالية الخاصة بالأراضي القنفذية يدرك مقدار الزكاة الكبير الذي كان يؤخذ على مزروعات أهل القنفذة[٣].

(*) مـن خلال زيارتي لبلاد البرك، وحلي، والقوز، والأحسبة والعرضيتين اتضح لي عدة أمور نذكر أهمها في النقاط التالية:

أ- غنـى وادي حلي بالأراضي الزراعيـة، ووفرة مياهه الصالحـة للزراعة. وإذا كان أهـالي القنفـذة تقاعسوا عن ممارسـة الزراعة، فتلك سمـة سائدة على الكثـير من سكان جنوب المملكة العربية السعودية، إلا أن أهالي حلي، وبخاصة الساكنين عند مصب الوادي مازالوا يمارسون الزراعة بشكل لابأس به[٤].

ب- هجـر أغلب سكان الـبرك، ويبة، وقنونا، والأحسبـة، والعرضيتين وما جاورها مزارعهـم، ومـن ثم تحولت إلى أراضٍ مهجورة ومطمـورة بالأتربة والأحجار وغيرها[٥].

ج- اعتـداء الإنسان علـى الأراضي الزراعية؛ إذ حُوِّل بعضـ منها إلى مخططات سكنيـة، وأقيمت بعض المشاريع والأبنية والطرقات على بعضها الآخر، ومن ثم تدهورت مهنة الزراعة، وتـرك الكثير من المزارعين مزارعهم، وذهبوا للبحث عن أعمال أخرى أسهل وأسرع لكسب الرزق[٦].

---

(١) انظر القسم الثالث من هذا الكتاب، للمزيد انظر أيضاً: القسم الأول من الكتاب نفسه، ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٣٣١ وما بعدها.

(٢) زيارة الباحث لهذه الأودية في (١٥-١٧/١٢/١٤٣١هـ).

(٣) هنـاك عشـرات الوثائق التي توضـح مقادير الزكاة على بـلاد القنفذة خلال العقـود الوسطى من القرن الهجري الماضي. مكتبة د. غيثان بن علي بن جريس العلمية، الوثائق العامة (ق١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م).

(٤) مشاهدات الباحث أثناء زيارة بلاد حلي، وبخاصة مصبه في يوم الإثنين (١٦/١٢/١٤٣١هـ).

(٥) مشاهدات الباحث في الفترة الممتدة من (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ).

(٦) المصدر نفسه.

د- توفر الأطعمة والحبوب والسلع المستوردة في الأسواق ساهم في تقهقر الزراعة، وأصبح المزارع يفضل أن يشتري ما يحتاجه من الحبوب والأطعمة، دون اللجوء للتعب والعناء الذي يجده الزّراع في خدمة زروعهم[١].

هـ- لم نتعرض للحديث عن ممارسة الزراعة في القديم، ونوعية الأراضي الزراعية، والمعوقات التي كان يواجهها الزّارع، والطرق والوسائل المستخدمة في الزراعة، وأنواع المحاصيل، والعوامل المساعدة للزراعة[٢]، وهذا لا يعني عدم أهمية الموضوع، وإنما تم الاكتفاء بذكر بعض الانطباعات والمشاهدات التي رأيناها [٣]. ونتمنى أن نرى من الباحثين، أو طلاب الدارسات العليا في أقسام التاريخ والجغرافيا من يدرس موضوع الزراعة في بلدان القنفذة وبخاصة الواقعة منها على أوديتها الرئيسية مثل : يبة وقنونا وما حولهما [٤].

(١) المصدر نفسه .
(٢) للمزيد عن تاريخ الزراعة في عسير وما حولها انظر:، ابن جريس . عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ١٢٩-١٤٦ ، انظر ايضاً : للمؤلف نفسه ، القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، ج٢٣ (القسم الثالث) .
(٣) مشاهدات الباحث وانطباعاته في الفترة الممتدة من (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ).
(٤) هذه موضوعات بحثية جديرة بالاهتمام .

٤- التجارة:

توافرت مقومات ممارسة التجارة بصورة جيدة في القنفذة، ذلك لما تمتاز به البلاد من طبيعة غنية ومتنوعة بمواردها، فهناك الأراضي الزراعية الشاسعة، والموانئ البحرية النشطة، والمراعي والثروات الحيوانية[١]، وكل هذا جعل حركة البيع والشراء في أوج نشاطها، فلا تخلو ناحية من نواحي بلاد القنفذة، إلا وبها سوق أسبوعي تفد إليه أنواع البضائع والسلع من كل مكان[٢]. ولأهمية العامل المالي والتجاري في منطقة القنفذة، وما تحتفظ به المصادر والوثائق من تفصيلات في هذا الباب جديرة بالبحث والتقصي والدراسة[٣]، ومن يطرق هذا الموضوع فإنه بدون شك سوف يسهم في تزويد المكتبة العربية والإسلامية بمادة علمية جديدة وقيمة[٤].

(*) حتى لا نلج في باب الدراسات العلمية الأكاديمية التوثيقية، ونلتزم بعنوان هذا الفصل في تدوين ما سمعناه ورأيناه أثناء تجوالنا في ديار القنفذة، فإننا نلخص ما خرجنا به في عدد من النقاط نسردها على النحو التالي:

١. الفاحص للوثائق التاريخية، والناظر إلى طبيعة البلاد الحالية، والمستمع إلى روايات وأقوال أهل البلاد يتضح له أن التجارة في القرون الماضية المتأخرة كانت تعتمد على منتجات الأراضي الزراعية، والثروات الحيوانية، وما يرد أو يصدر عبر موانئ القنفذة البحرية[٥]. ولم تكن مهنة التجارة مقصورة على سكان البلاد الأصليين، وإنما كان يفد إليها تجار من خارج حدود القنفذة[٦]. وكانت السفن البحرية والقوافل البرية هي المسؤولة عن نقل التجارات داخل وخارج المنطقة[٧].

---

(١) هذا ما قرأه الباحث في العديد من المصادر والوثائق، وما شاهده وسمعه من أهل البلاد أثناء تجواله فيها في الأسبوعين الأخيرين من شهر ذي الحجة عام (١٤٣١هـ).

(٢) هناك عشرات الأسواق الأسبوعية المندثرة تماماً، ومازال عدد قليل منها يمارس نشاطاته بشكل ضعيف جداً.

(٣) حبذا أن نرى أحد الباحثين، أو الباحثات من يتخذ تاريخ التجارة في القنفذة خلال القرون الماضية المتأخرة عنواناً لرسالته أو رسالتها لدرجتي الماجستير أو الدكتوراه.

(٤) هناك آلاف الوثائق غير المنشورة، وبخاصة في الجانب الاقتصادي والتجاري، ومعظمها في الأراشيف المصرية، والعثمانية والبريطانية. كما يوجد بمركز الوثائق والمحفوظات بالمملكة العربية السعودية كثير من الوثائق التجارية والمالية التي تعود إلى العقود الوسطى من القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م).

(٥) ما سمعه وقرأ عنه الباحث خلال السنوات الماضية المتأخرة.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) التجارة البحرية في البحر الأحمر، ودور موانئ البرك والقنفذة فيها من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى من الباحثين من يولي هذا الموضوع بالدراسة والتوثيق.

٢. المتأمل في ثروات القنفذة الزراعية والحيوانية اليوم يجدها تراجعت وتدهورت، فلم يعد هناك زروع ومزارع كما كانت في السابق، بل أصاب الكثير من الأراضي الزراعية الخراب والدمار[١] . وكذلك الثروة الحيوانية، لم يعد القيام على تنميتها نشطاً كما كانت في القرون الماضية، وإنما حل بها ما حل بالزراعة . والأمر نفسه كذلك يندرج على باقي المهن والحرف الأخرى[٢].

٣. كانت الأسواق الشعبية الأسبوعية القلب النابض لأي ناحية أو جزء في القنفذة، وأصبحت هي الأخرى من القطاعات الميتة، فلم يعد لها ذلك البريق والنشاط الذي كانت تعيشه في السابق، وإنما تلاشى واندثر أعظمها، وإذا بقي قلة قليلة منها فهي في طور الاحتضار، وإن قامت فيها ممارسة تجارية محدودة في بعض أيام الأسبوع[٣]. والواجب على أهل تلك الأسواق والمؤسسات الثقافية والعلمية، والهيئة العليا للسياحة والآثار أن تحافظ على كيان هذه الأسواق حتى تكون معالم حضارية تاريخية في البلاد[٤].

٤. نعم إن البلاد تمر بنهضة تجارية جديدة وعالمية، فالقنفذة اليوم يوجد بها مئات الأسواق والسلع العالمية، كما أن وسائل المواصلات والاتصالات سهلت على التجارة والتجار الانفتاح على عوالم كثيرة في الكرة الأرضية، بل جعلت السلع المصنوعة في أقصى الغرب أو الشرق تصل إلى أسواق القنفذة وغيرها في ساعات محدودة [٥]. وهذا أمر جميل ومحمود، لكن كثيراً من السلع والمهن والتجارات المحلية القديمة انقرضت، وهذا مما يساعد على فقدان الهوية والطابع الشعبي المحلي الذي عاشه الأوائل[٦]. والواجب على أهل البلاد وجميع

---

(١) مشاهدات الباحث وانطباعاته في (١٥ - ١٤٣١/١٢/١٩هـ) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مشاهدات الباحث وتجواله في بلاد القنفذة وغيرها من بلدان جنوبي البلاد السعودية خلال العقدين الماضيين المتأخرين .

(٤) عدم الاهتمام بهذه الأسواق من الناحية التاريخية والأثرية أدى إلى خرابها وضياع معالمها .

(٥) من يزر القنفذة اليوم وبخاصة المدينة يجدها تشتمل على سلع وأسواق وتجارات جاءت إليها من جميع أصقاع الدنيا، في حين أن الكثير من الشباب السعودي عاطل ولا يجد عملاً ذا راتب جيد يساعده على مصاريف الحياة المعيشية .

(٦) الكثير من الشباب (نساءً ورجالاً) لا يعرفون أي شيء عن حياة الأوائل التجارية، والمشكلة نفسها تشمل جميع المهن والحرف الأخرى . مع العلم أنك تجد الكثير منهم يعلمون الشيء الكثير عن تجارات عصرنا الحاضر .

المؤسسات المعنية بالحفاظ على القديم أن تؤسس معارض ومتاحف واسعة وكبيرة، يحفظ فيها تراث الأوائل في المجالات الاقتصادية، ووسائل التجارة، ومعاملاتها، وأدواتها، وعملاتها وغيرها[١].

٥. اتضح لنا أثناء السير في بلاد القنفذة، والالتقاء والحديث مع معظم شرائح المجتمع القنفذي وبخاصة جيل الشباب والصغار منهم التباين الواسع في تجارات القديم والحاضر، بل جهل الجيل الحاضر بأنماط وفنون التجارات القديمة، وهذا مما يوسع الفجوة بين تاريخ الماضي والحاضر، ومن ثم تظهر أجيال لا تعرف من تاريخ آبائها وأجدادها أي شيء، ويكون حبها واطلاعها وولاؤها إلى كل جديد يأتيها من أقصى بلاد الشرق أو الغرب[٢]. نعم يجب أن نتكيف مع ما يجري في عالمنا اليوم، لكن ليس على حساب هويتنا وتاريخنا وحضارتنا الأصيلة والقديمة[٣].

٦. لو قارنا تجارات الماضي بالحاضر وبخاصة في نوعية السلع، وأسعارها، والطرق التجارية، وسعة الأسواق وترتيبها، والمعاملات التجارية الأخرى، فليس هناك مجال للمقارنة، ففي الماضي يغلب عليها المحدودية، والبدائية، وعدم وجود جميع الضروريات ناهيك عن الكماليات فلا توجد على الإطلاق، وغيرها من العقبات التي يصعب حصرها . بعكس اليوم الذي فاضت فيه الأرزاق، وأصبح كثير من الناس يعيشون عصر رخاء ونمو وازدهار[٤].

٧. كان للأوائل، وبخاصة في مجال الاقتصاد، مبادئ وأهداف نبيلة، وهذا ما يجب أن نعلمه أبناءنا وبناتنا في بعض مراحل التربية والتعليم، ومن ثم يكونون على صلة حسنة بماضي آبائهم وأجدادهم الجميل في مثله وقيمه[٥].

---

(١) نلاحظ مثل هذه المعارض والمتاحف في بعض البلدان الصناعية والتجارية الكبرى مثل: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وأمريكا، والصين، واليابان وغيرها .

(٢) مشاهدات الباحث وانطباعاته في بلاد القنفذة خلال الفترة الممتدة من (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ).

(٣) إذا حرصنا على ربط الماضي بالحاضر فإن نسبة الولاء وتوطيد الهوية سوف يترسخ في قلوبنا وقلوب ناشئتنا .

(٤) مشاهدات الباحث وانطباعاته أثناء تجواله في بلاد القنفذة في (١٥- ١٩/١٢/١٤٣١هـ) .

(٥) هذا ما يراه الباحث من خلا ل تجواله في مناطق عديدة من جنوبي البلاد السعودية .

٥- الحرف والصناعات المحلية :

عرفت منطقة القنفذة الكثير من المهن والحرف الصناعية والتقليدية، فأغلب احتياجات أهل البلاد في ممارسة مهن الزراعة والتجارة، والدباغة، والصياغة، والصباغة وغيرها من الحرف الكثيرة كانت تصنع محلياً [١]، وكان العاملون في جميع المهن من أهل البلاد [٢]، ولن ندرس تاريخ وممارسة تلك المهن، لأنه موضوع كبير وجدير بالدراسة العلمية الأكاديمية الجادة [٣]، ونوصي بأن يدرس من قبل أحد طلاب أو طالبات الدراسات العليا في أقسام التاريخ بجامعاتنا السعودية [٤] .

(*) لكن نذكر في النقاط التالية العديد من الانطباعات التي سمعناها من أهل البلاد، وشاهدناها أثناء زيارتنا الأخيرة لمنطقة القنفذة[٥]، وهذه الآراء على النحو التالي:

١. لم يكن معظم الناس يمارسون بعض المهن مثل الحدادة والصياغة وغيرها، وإنما الغالبية كانوا يتأففون منها، بل يحتقرونها وربما من يعمل فيها . وهذه عادة لم تكن عند أهل القنفذة فقط[٦]، وإنما عند غالبية سكان الجزيرة العربية[٧]، بل إنها عادة قديمة عند العرب قبل الإسلام، فالذي كان يمارسها قبل الإسلام كانوا يطلقون عليه اسم (القين) من باب الازدراء[٨] . وهذا الموروث الجاهلي القديم استمر مئات السنين عند غالبية العرب[٩] .

٢. معظم المهن مثل: الزراعة، والنجارة، والخياطة، وما يحتاجه الناس في تجاراتهم، وزراعاتهم، ورعيهم وصيدهم كانت تمارس على نطاق واسع . وكان

---

(١) للمزيد عن تاريخ الحرف الصناعية في جنوبي البلاد السعودية، وبخاصة في عسير وما جاورها، انظر، ابن جريس . عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص١٤٧-١٦٠ ، انظر أيضاً موسوعة (القول المكتوب في تاريخ الجنوب) ، ج٢٣ (القسم الثالث) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) هذا موضوع جميل لم يعالج حتى الآن بطريقة علمية أكاديمية .

(٤) من يتخذ هذا الموضوع عنواناً لرسالته، فإنه سوف يضيف جديداً إلى المكتبة .

(٥) هذه الزيارة كانت في الفترة من (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ).

(٦) تجد هذا الانصراف والتأفف عند عموم سكان الجزيرة العربية وبخاصة العناصر العربية منهم . مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال العقود الأربعة الماضية ، وهذه العادة معروفة في المجتمعات العربية من قبل الاسلام وعبر اطوار التاريخ الإسلامي .

(٧) هذه عادة قديمة تعود إلى العصر الجاهلي، انظر: جواد علي، المفصل، ج ٧، ص٥٠٦ .

(٨) المصدر نفسه . انظر ايضا : ابن جريس . عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ١٤٧ وما بعدها .

(٩) المصادر نفسها .

أفراد المجتمع هم الذين يقومون بتوفير المواد والأدوات الضرورية لممارسة مهنهم . وهذا جزء من حياة الفرد والأسرة اليومية، فتراهم يتعاونون فيما بينهم، ويساعد بعضهم بعضاً من أجل استمرارية حياتهم . ومن ثم فالمجتمع القنفذي، في البلدة أو القرية، يعيش عيشة تكاملية، فيسند ويكمل كل واحد منهم الآخر في تبادل المنافع، وتكامل مهن الحياة[١].

٣. أسواق القنفذة قديماً كانت مليئة بالصناعات الحرفية والمهنية، ومن ثم كان الحرفيون والصناع يصدرون سلعهم إلى الأسواق وذلك من أجل الاقتيات من كسبها [٢]. والملاحظ أنني وجدت الحليب في كثير من نواحي منطقة القنفذة لا يباع إطلاقاً، وإنما يُهدى، ومن يطلب شراءَه من ملاك الإبل والبقر والمواشي فقد يقابل صدوداً كبيراً وعدم تجاوب مع طلبه[٣]. ولا ندري ما السبب في ذلك.

٤. من ينظر في العوامل المساعدة لممارسة كل مهنة في منطقة القنفذة يجد معظم الظروف مهيأة، لما تمتاز به البلاد من إمكانات في مواردها الزراعية والتجارية والحيوانية، وكذلك جمعها بين بيئتي اليابس والبحر، وغيرها مما يساعد أي حرفي على ممارسة حرفته[٤].

٥. من خلال تجوالي في عموم بلاد القنفذة وجدت معظم المهن والحرف القديمة اندثرت، ولم نعد نرى إلا بعض الأدوات الأثرية لبعض تلك الصناعات[٥]، ونالها من الاندثار والتقهقر ما نال غيرها في ميادين الزراعة والتجارة والرعي وغيرها . وحتى نربط جيل الحاضر بالماضي فإنه يتوجب على أهل البلاد ومؤسسات التعليم، والتراث والآثار وغيرها أن تنشئ متاحف منظمة وكبيرة يُجمع فيها ما عرفه الأوائل من موروثات حرفية وصناعية، كما يجب على مؤسسات التعليم العام والعالي أن تدرج ضمن مناهجها ما لتلك الحرف

---

(١) مشاهدات الباحث وانطباعاته في (١٥-١٩/١٢/١٤٣١هـ) . كما أن هناك عشرات الوثائق التي تؤكد صحة ما ذهبنا إليه .

(٢) ابن جريس، عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ، ص ١٤٧، ١٦٧، ١٧١ .

(٣) مقابلة مع عبد الرحمن بن عبده الهلالي، وعوض بن حسن العمري، ومحمد علي عمر آل عمر الكناني في بلاد حلي يوم الاثنين (١٦/١٢/١٤٣١هـ).

(٤) مشاهدات الباحث لمنطقة القنفذة خلال الفترة الممتدة من (١٥ - ١٩/١٢/١٤٣١هـ) .

(٥) المصدر نفسه .

والصناعات من فنون، ونظم وأعراف وتقاليد جميلة وسامية[١].

٦. قضت سطوة العصر الحديث بصناعاته وتقنياته واتصالاته على القديم، ونحن لا ننادي بعدم الدخول في إطار العصر الحديث وما جلب لنا من طفرة حضارية صناعية، وإنما يجب أن نأخذ بالجديد ونستفيد من كل مفيد فيه، لكن لا ننسى ماضينا، وما واجه آباؤنا وأجدادنا من صعوبات وكيف تغلبوا عليها، واستطاعوا تطويع عصرهم لتحقيق أهدافهم . والمتأمل في شتى الحرف والمهن والصناعات القديمة عند المتقدمين يدرك أنهم مبدعون في زمانهم، وفي مواجهة شتى الصعاب والعقبات في عصرهم [٢].

٧. الناظر في أسواق بلاد القنفذة وغيرها، بل المتأمل في حياة الفرد السعودي في أي ناحية من نواحي المملكة العربية السعودية يجد أن هناك طفرة مهنية حرفية صناعية حديثة، لكن للأسف ليست من ابتكار الأفراد السعوديين، وإنما هي ناتج مصانع كبيرة داخل وخارج البلاد، ومن صنع الآخرين وإن نظرنا على مستوى الداخل فالعاملون في جميع الحرف والمهن والصناعات المحلية تجدهم من مجتمعات عربية وأجنبية وفدوا إلى أنحاء البلاد السعودية لكسب أرزاقهم وخدمتنا في شتى مجالات الحياة [٣]. ونحن أهالي البلاد مازلنا نجتر ماضينا الغابر من التأفف وازدراء الانخراط في ممارسة المهن والصناعات المختلفة. وربما ساعد الثراء والخير الذي يعيشه الناس في هذه السلبية، لكن الشباب القنفذي،أو السعودي قاطبة مازال لا يحبذ العمل في المهن الصناعية والحرفية، ويرى ذلك من العيب ومنقصة له في أسرته وبين أقرانه وفي مجتمعه، مع أن مثل هذه الحرف تدر أموالاً طائلة على أصحابها، وغالباً ما يفضل الشاب أن يظل عاطلاً، ولا يعمل في أي ورشة أو مهنة أو صناعة[٤] .

---

(١) لاحظ الباحث وفرة المواد التراثية القديمة عند أهل القنفذة، ويجب أن ينشأ لذلك متحفٌ تعليمي يرتاده الطلاب والسائحون وغيرهم ، (ابن جريس) ويذكر الأستاذ غازي الفقيه في تصويباته أنه يوجد في مدينة القنفذة متحف يحتوي على مواد أثرية متنوعة وقد شاهدت عدد من المتاحف في بلاد السروات وتهامة ، لكنها غير مدعومة مادياً ، ولا مخدومة علمياً .

(٢) مشاهدات الباحث وانطباعاته، واطلاعه على بعض المتاحف الخاصة في نواحٍ عديدة من جنوبي البلاد السعودية خلال السنوات العشر الماضية .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) هذه النظرة سائدة عند عموم الشعب والشباب السعودي، وإن كان قلة قليلة بدؤوا يدخلون هذا الباب لكنهم نسبة لا تذكر، مع أن آلاف الشباب تجدهم عاطلين وليست لهم أعمال، وإنما مصادر رزقهم على أهليهم ، ولا يحبذون أعمال الحرف والمهن المختلفة، والمربحة في مصادر رزقها ، حبذا أن يصدر عن هذا الموضوع دراسات علمية توضح الأسباب والحلول لهذه المشكلة .

خامساً: ملامح الحياة التعليمية والثقافية والفكرية:

١- التعلم:

كانت الأجزاء الساحلية أحسن حالاً من غيرها، لأن طريق الحج والتجارة الرئيسية كانت تعبر البلاد المحاذية للبحر، ومن ثم فالعديد من العلماء والأدباء وأرباب الثقافة يتوقفون مع رفاقهم في المحطات الرئيسية، ويلتقون ببعض السكان المحليين فيؤثرون فيهم ببعض العلوم والمعرفة. كما أن بعض الأعيان وربما المتعلمين من أهل الحجاز وبخاصة مكة المكرمة كانوا يذهبون إلى ديار القنفذة، فيملكون العقار، ويخالطون الناس، وكان منهم من يعلم الناس أمور دينهم، ويقيمون بهم صلاة الجمع والجماعات، وتقسيم المواريث، والفصل فيما يقع بين الناس من خصومات. والمتأمل في بعض المصادر الإسلامية الوسيطة والوثائق التاريخية خلال القرون الأربعة الماضية. يجد في بعضها إشارات إلى وجود حياة علمية متوسطة.

وإذا دققنا النظر في مستوى أرباب العلم والمعرفة الذين جاءوا إلى القنفذة وأقاموا فيها قبل وفي بداية التعليم النظامي نجدهم كانوا يبدؤون مراحل تعليمهم الأولى في بلادهم، وإذا بدأ الواحد منهم يتدرج في سلم العلم والتلقي فإنه يعزم على الهجرة في طلب العلم، وغالباً ما كان طلاب العلم يولون وجوههم إلى مكة وأحياناً إلى بعض حواضر اليمن الرئيسية[١]، وبعد دخول القنفذة تحت نفوذ بني عثمان كان يفد إليها بعض العلماء وطلاب العلوم الشرعية من مصر وبعض البلدان الإسلامية الأخرى. وهكذا استمرت بلدان القنفذة والبرك وربما بعض الأجزاء الداخلية تحتضن العديد من الفقهاء وأصحاب العلوم الشرعية والعربية الذين يتولون توجيه الناس وتفقيههم إلى ما كان صالحاً لهم في دينهم ودنياهم[٢].

منذ ظهور التعليم النظامي في القنفذة في الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي، بدأت الأحوال تتحسن تدريجياً، ففتحت المدارس الأولية، ثم تزايدت مع مرور

---

(١) هذا ما يلحظه الباحث في بعض المصادر الحجازية واليمنية خلال العصر الإسلامي الوسيط. وكذلك في عشرات الوثائق خلال القرون الماضية المتأخرة.

(٢) إن موضوع الحياة التعليمية والثقافية في بلاد القنفذة خلال العصر الإسلامي الوسيط، أو القرون الأولى من العصر الحديث جدير بالبحث والدراسة. حبذا أن نرى أحد الباحثين أو طلاب الدراسات العليا من يتخذ هذه الموضوعات عناوين لرسائلهم في أطروحات الماجستير أو الدكتوراه، ونحن على يقين أن من يفعل ذلك سوف يحصل على فوائد علمية جيدة.

الزمن حتى صارت متناثرة في جميع مدن وقرى وهجر وبوادي القنفذة، بل أصبح هناك مئات المدارس في جميع مراحل التعليم العام، وفتحت بعض المعاهد والمراكز الفنية والتقنية، وأصبح في مدينة القنفذة العديد من الكليات ومؤسسات التعليم العالي[١]، ونأمل أن نرى جامعة مستقلة في محافظة القنفذة حتى تخدم عشرات الآلاف من طلاب وطالبات الأجزاء التهامية الممتدة من الليث شمالاً إلى البرك والقحمة والحريضة جنوباً[٢].

والسائح في بلاد القنفذة، بل في عموم البلاد السعودية يجد أن النساء والرجال القنافذة نالوا نصيباً من العلم والتعليم فأصبح بينهم الكثير من أساتذة الجامعات، والأطباء، والمهندسين والقانونيين، والإداريين، والمعلمين . بل تجد بينهم من يستطيع قرض الشعر وكتابته، وتدوين الرواية والقصة، وتأليف البحوث والكتب العلمية . كما أن فيهم من له إبداعات فنية وتشكيلية وغيرها . والناظر إلى المؤسسات الحكومية والأهلية في محافظة القنفذة أو خارجها يجد أيضاً أن العديد من نساء ورجالات القنفذة ممن لهم إسهامات في هذا الجانب، بل هناك من وصل إلى مراتب قيادية عليا في مجالات التعليم،والتجارة، والصحة، والقضاء وغيرها. وهذا لم يتيسر لهذه الفئات إلا بعد أن أخذوا من العلم والمعرفة قسطاً وافراً أهلهم للوصول لهذه الأعمال والوظائف العالية .

(١) إن موضوع تاريخ التعليم العام والعالي في منطقة القنفذة جدير بالبحث والتقصي والدراسة، ونأمل أن نرى من يدرس هذا الجانب الحضاري الحيوي الهام .

(٢) من خلال تجوالنا في ديار القنفذة منذ عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) حتى اليوم عام(١٤٣١هـ/٢٠١٠م) لاحظنا عشرات المدن والقرى والهجر المكتظة بالسكان، وهي فعلاً بحاجة إلى مؤسسات تعليمية عالية.

٢- الثقافة والفكر:

لا تخلو منطقة القنفذة ممن له نشاطات ثقافية وبخاصة في عصرنا الحديث والمعاصر، لكن مازالت أيضاً بحاجة إلى مراكز ثقافية ونواد اجتماعية تحتضن شباب وشابات المنطقة كي توجههم التوجيه السليم، وتكتشف أصحاب المواهب والإبداعات، ثم تشجعها وترعاها . وإذا كانت المؤسسات التعليمية العامة والعالية تسعى إلى نشر النشاطات الثقافية المختلفة بين الناس، فإنها لا تستطيع أن تفي بالغرض لأن عملها الرئيسي منصب على المهنة التعليمية، ولابد من إيجاد نواد ومنتديات ومراكز ثقافية تقوم على نشر الوعي الثقافي بين الناس، بل الجد والاجتهاد على الارتقاء بكل ما يخدم الثقافة في شتى مجالاتها .

أما الفكر فهو الآخر من أهم المجالات التي يجب رعايتها وتوجيه جميع أفراد المجتمع إلى كل خير ونافع . والدارس لأحوال المجتمع القنفذي يجده خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة يدين بالمذهب الشافعي، ولم تخل بعض النواحي في هذه الديار، كأجزاء من حلي وغيرها من الممارسات الصوفية، بل إن بعض القوى السياسية في العصر الحديث، كالإدريسي مثلاً، سعت إلى نشر مبادئها العقدية وما تؤمن به بين السكان القنفذيين . والملاحظ على أهالي القنفذة أنهم طيبون مسالمون، فلا يبحثون عما يخرجهم عن الجادة . ومن يستقرئ الأفكار الهدامة التي تشربها وسار في ركابها بعض من أبنائنا خلال العقود الماضي المتأخرة، فإنه يلحظ نقاء منطقة القنفذة من هذا الفكر الضال، فلم أسمع حسب علمي وحسب ما قرأت أن أحداً من أبناء أو سكان بلاد القنفذة انخرط في زمرة من خرج عن صوابه، وسلك سبل الهلاك والخراب والدمار[١].

(١) إن انتشار الفكر الضال بين بعض الأفراد من الشعب السعودي جدير بالتقصي بالبحث والدراسة، مع الحرص على دراسة الأسباب الرئيسية لظهور هذا الفكر، وما هي أكثر البيئات التي يعيش فيها ؟ وما هي الحلول لمواجهة مثل هذه الضلالات؟

٣- جوانب أخرى:

من خلال سياحتنا في نواحي القنفذة اتضح لنا أن أهلها يمتلكون موروثاً ثقافياً محلياً لا بأس به، فهناك الكثير من الأمثال والحكم الشعبية، والألغاز والأحاجي والقصص والنوادر والفكاهة وكذلك الشعر النبطي والروايات الشعبية. ومثل هذا التراث المحلي يعكس بعض الجوانب الحضارية الثقافية التي عاشتها ديار القنفذة ومازالت تعيشها حتى اليوم . كما أنّ الفنون الشعبية المتنوعة والأهازيج والأغاني والموسيقى هي الأخرى تُعدّ رافداً ثرياً لمن يرغب الاطلاع على حياة السكان العامة . ومثل هذه المحاور جديرة بالبحث والدراسة، والجميل أنه يوجد ببلاد القنفذة الكثير من المتعلمين الذين يحملون شهادات عليا في العلوم النظرية والإنسانية وقد يظهر من بينهم من يسلط الضوء على مثل هذه القضايا المعرفية فيخرج لنا دراسة أو دراسات جديدة في بابها وثرية في معلوماتها .

أما ميدان اللغة واللهجات في أوطان القفنذة فهي الأخرى باب واسع يحتاج إلى دراسة علمية أكاديمية موسعة، وأملنا كبير في أقسام اللغة والأدب العربي في جامعات: أم القرى، والباحة، وجازان، والملك خالد، ونجران، والطائف فتسلط الضوء على لهجات جنوبي البلاد السعودية الثرية في مفرداتها، الأصيلة في معانيها وتاريخها[١].

(١) المدقق في مفردات اللهجات (اللغة) المحلية الجنوبية يجد الكثير منها ذا أصول عربية أصيلة، بل يجد منها ما ورد في القرآن الكريم وكتب السنن، ناهيك عن المعاجم اللغوية فهي مليئة بمفردات ولغات سكان الجزيرة العربية .

(*) وقد حاولت جمع بعض الشيء عن اللهجات أثناء زيارتي لديار القنفذة في النصف الثاني من شهر ذي الحجة عام (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، وخرجت ببعض الرؤى والانطباعات التي نوردها في النقاط التالية :

أ- إن كل سكان قرى حلي ووادي يبة تكاد تكون لهجاتهم متشابهة عدا فروق يسيرة جداً في مخارج بعض الحروف، وهي فروق لا يميزها إلا أهل تلك القرى فقط[١]. أما الخلاف بين لهجات تلك القرى وأهل وادي قنونا وما يقع شمال مدينة القنفذة (الأحسبة، والمظيلف، ودوقة) فهو واضح إلى حد ما . ولفظة (الجاف) بجيم معجمة منصوبة ممدودة بعدها فاء معجمة مجزومة، وهي تعني (الرديء،أو غير جيد) . ويقابلها لفظة (موطيب،أو ذماة)، كما أنهم ينطقون كاف المخاطب منصوبة في حالة الوصل، أو الوقف عليها إذا جاءت بعد لفظة (أقولُ) مثل : (أقول لك) . بينما تنطق اللام وكاف المخاطب مجزومة عند أهل بلدة القنفذة وما يأتي شمالها[٢].

وتوجد فروق في طريقة مخارج الحروف بين أهالي حلي ويبة وبين أهالي مدينة القنفذة وما يقع شمالها إلى حدود محافظة الليث . وهذه الاختلافات بسيطة جداً فلا يشعر بها أو يميزها إلا سكان المحافظة[٣] . والملاحظ يجد أن استعمال أداة النصب شائعة بوضوح في بلدان حلي ويبة، بينما يستخدم الجزم والضغط على الحروف في النواحي الواقعة شمال بلدة القنفذة وجنوبها، فتجد لفظة (قلت له) ينطقها أهل الجنوب (قلتَ لُهَ) بكسر القاف وتاء مفتوحة ولام مضمومة وهاء مجزومة . وعند أهل الَشمال (قِلتَ لَه) بكسر القاف وتاء منصوبة ولام منصوبة وجزم الهاء [٤]

وأهالي جنوب القنفذة يطلقون لفظة (أولاد) على الأطفال والرعاع والشباب. بينما أهالي الشرق وجنوب شرق المحافظة يقولون (بثور) على نفس الفئة، أما

---

(١) مقابلة مع بعض المعلمين في مدارس حلي، والقوز، والقنفذة، والأحسبة . في الفترة الممتدة من (١٧-١٩/١٢/١٤٣١هـ) . كما زودنا الأستاذ يحيى بن إبراهيم بن يحيى العجلاني بمذكرة في صفحتين حول العديد من القضايا الثقافية في بلاد القنفذة . وهذه المذكرة ضمن الوثائق العامة . بمكتبة د. غيثان ابن جريس العلمية (ق ١٥هـ/٢٠-٢١م)، جـ٥، ص ٩٧ – ٩٨ .

(٢) المصادر نفسها .

(٣) المصادر نفسها .

(٤) المصادر نفسها .

سكان الشمال فينادون باسم (الجهلة) لهذه الشريحة نفسها [١]،

ب- من خلال تجوالنا في بلدان الحبيل، والقوز، وثلاثاء يبة أو(ثلوث بلعير) وجدنا اختلافاً في نطق بعض الكلمات، فكلمة بقر في القوز تلفظ بفتح الباء (بَقر)، وفي ثلاثاء يبة تضم الباء (بُقر). وفي القوز يقال للديك (فرنوج، أو فرخ) في حين يطلق عليه (زقل) في بلدة الحبيل . وهناك من يطلق على كلمة المسجد (المسيد) . وفي بلاد النواشرة بمحافظة القنفذة تقدم وتؤخر حروف في بعض الكلمات أوالمسميات، فيقال : للكهرباء (الكرهباء)، والعقرب (العرقب)، والمصارعة (المراصعة) وغيرها مفردات عديدة من هذا النوع[٢].

ج- وأثناء زيارتنا لبلاد العرضيتين وجدنا عندهم أيضاً اختلافات وفروقاً يسيرة، فأهل العرضية الجنوبية يبدؤون نطق الاسم بحرف الألف والميم (أم) بدلاً من الألف واللام مثل: الكتاب، والرجال، والجبل تنطق (أم كتاب، أم رجال، أم جبل) . أما غالبية سكان العرضية الشمالية فلا يدخلون الألف والميم على الكلمة، وإنما ينطقون المفردة باستعمال الألف واللام [٣] .

وكلمات الاستفسار أو الاستنكار أو الاستفهام في العرضية الجنوبية مما يلفت النظر يقولون (ليه) بمعنى لماذا ؟ وفي الشمالية يضاف حرف الألف وأحيانا الواو فيقال (أليه) أو (وليه)[٤] . وأسماء الإشارة في الشمالية عندما يشار إلى مكان شخص قريب أو بعيد فيقال (نحاهو)، وفي الجنوبية (لكلوه، عين له، شوف له). وفي الإشارة إلى هنا وهناك يقال في الجنوبية (هنية) وفي الشمالية (هنَّا) . والإشارة

(١) المصادر نفسها . وإذا تأملنا في الكثير من المفردات المحلية لبلاد القنفذة لوجدناها ذات أصول عربية نقية. حبذا أن نرى من طلاب برامج الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية من يدرس لهجات تهامة بشكل عام أو بلاد القنفذة بشكل خاص، وهذا في اعتقادنا موضوع جديد وجدير بالبحث والدراسة.

(٢) مقابلة مع عدد من رجالات مركز القوز في بلدات الحبيل، والقوز، وثلاثاء يبة في (١٤٣١/١٢/١٨هـ). وكما ذكرنا سابقاً، اللهجات في منطقة القنفذة غنية بمفرداتها وجذورها اللغوية والتاريخية، وجديرة بالبحث والتقصي والدراسة من المتخصصين في علوم النحو واللغة واللسانيات في جامعاتنا السعودية .

(٣) مقابلة مع العديد من المثقفين والمتعلمين في العرضيتين في (١٤٣١/١٢/١٩-١٨هـ) . كما زودنا الأستاذ عبد الله الرزقي بمذكرة حول بعض الجوانب الحضارية في العرضيتين مثل: اللهجات وغيرها، بتاريخ (١٤٣١/١٢/١٨هـ) . المصدر : مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (بحوث ودراسات غير منشورة) رقم (٣١٧) . ص ٣١٠-٣٢٢.

(٤) المصادر نفسها .

إلى القريب والبعيد يقال (انحلوه) . وعند نداء الأب أو الأخ في الشمالية يقال (بيهو، وخيهو)، وربما يقال (بيه، وخيه) [١] .

وهناك قواسم مشتركة عند سكان العرضيتين ومن جاورهم وبخاصة في مصطلحات الذم والمدح، فيقال (ونعم وفصيحها نعم، وبيس وفصيحها بئس). ومطلق، وونعم، وقرم، وفلان ذئب كناية عن الشهامة والمروة والكرم . وهناك بعض الاختلافات في لفظ مسميات بعض الأكلات والأدوات، فيقال (الرواكة)[٢]. في الجنوبية، و (الفريقة) في الشمالية . و(البكرة) تسمى في الجنوبية باسم (العجلة)، وفي الشمالية (المحالة)[٣].

وفي بلاد البرك تجد انتشار الألف والميم بدلاً من الألف واللام، كما هو عند سكان العرضية الجنوبية (فيقال للرجل : (أم رجل)، وإذا لم يدخل الألف والميم على أول الكلمة فإنه يضيف إليها تنويا في آخر المفردة . مثل : رجل (رجلن)، أو جبل (جبلن) وهكذا . وهناك كلمات لا يجري عليها نظام القاعدة السابقة . مثل البحر، والبلد وما شابهها فإنها تنطق بالألف واللام . وكذلك بعض الأسماء المؤنثة مثل (القحمة، والسيارة، والمرأة) فتنطق (قحمة، وسيارة، وامرأة)، ولا يدخل عليها الألف والميم في البداية، ولا التنوين في النهاية [٤].

---

(١) المصادر نفسها .

(٢) الرواكة : من الأكلات المحلية، ومكوناتها دقيق الدخن أو الذرة مع اللبن أو الماء تطهى على النار لبعض الوقت وتعطى أحياناً المريض، أو بعض أفراد الأسرة، وهي شبه سائلة . المصادر نفسها ، معظم الأمثلة أعلاه من بلاد العرضيات مع أن السائح في بلاد تهامة من الليث إلى جازان يجد اختلافات وتباين من مكان لآخر في الألفاظ ، وأصواتها ، ومعانيها ، وطرق إستخدامها .

(٣) المصادر نفسها. قمنا بزيارة لبعض نواحي القنفذة الداخلية مثل : أحد بني زيد، وسبت الجارة، وخميس حرب، وجبل ثربان العسيري، واتضح لنا ظهور العديد من الاختلافات اللغوية في تلك النواحي .. بل بعض أهل البلاد ذكروا لنا وجود بعض العقبات في فهم لهجات جمعة ربيعة وما حولها . حبذا أن تدرس هذه النواحي تاريخيا وحضاريا فهي جديرة بالبحث والدراسة . مشاهدات الباحث وانطباعاته في (١٧-١٩/١٢/١٤٣١هـ) .

(٤) مقابلة مع بعض أعيان بلدة البرك في منزل الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الرحيم الهلالي يوم الثلاثاء (١٧/١٢/١٤٣١هـ) . وكما أشرنا إلى موضوع اللهجات في عموم جنوبي البلاد السعودية بأنه من الموضوعات الهامة الجديرة بالبحث والدراسة .

سادساً : الخلاصة :نتائج ، و اقتراحات ،و توصيات:

(*) من خلال رحلتنا في بلاد القنفذة اتضح لنا عدة أمور نذكر أهمها في النقاط التالية :

١. تأكد لنا - فعلاً - تباين الوضع الجغرافي لديار القنفذة، التي جمعت بين الشريط الساحلي، وبلاد الخبت، ومنطقة الأصدار . وهذا مما أثر على سكان البلاد في ممارسة حياتهم اليومية، بل في لهجاتهم وأعرافهم وتقاليدهم الثقافية والاجتماعية . وهذا التباين جدير بالبحث والدراسة، وهو مسؤولية طلاب البحث التاريخي والجغرافي والنفسي والاجتماعي، ومن يلج في هذا الباب فيتأمله ويدرسه فإنه بدون شك سوف يخرج بنتائج جيدة ذات قيمة علمية مفيدة .

٢. تتميز القنفذة بامتلاكها شواطئ جميلة، ومرافئ صالحة لممارسة مهن السياحة، والتجارة، والصيد . وبعض هذه الموانئ مثل: القنفذة والبرك وغيرها كانت ذات نشاط تجاري حضاري عالمي إلى وقت قريب، بل كانت بوابة تجارية لأجزاء كثيرة من بلاد تهامة والسراة، الممتدة من منطقة الباحة إلى بلاد عسير ونجران . والواجب على إدارة الموانئ وغيرها من المؤسسات الحكومية الأخرى، التي لها صلة بعالم التجارة والصلات الحضارية الاقتصادية الداخلية والخارجية،أن تعيد النظر في إعادة سابق مجد هذه الموانئ إلى ما كانت عليه[١]، ومن ثم فقد تعود بالخير العميم على عموم سكان البلاد القنفذية، بل على سكان تهامة والسراة الممتدة من زهران شمالاً إلى أبها ودرب بني شعبة ونجران جنوباً .

٣. تقع منطقة القنفذة على أودية كبيرة تجعلها ذات جودة عالية في نوعية مزارعها وجودة تربتها . ومثل هذا الجانب يجب أن يستغل بشكل جيد، فتبنى السدود الواسعة، وتوظف مياهها في خدمة البلاد وأهلها زراعياً . وإذا تم مثل هذا الأمر، فإنها بدون شك سوف تثري الأسواق المحلية والخارجية بمحاصيلها وثمارها المختلفة .

---

(١) من يدرس المصادر التاريخية المبكرة، ويطالع مئات الوثائق خلال القرون الثلاثة المتأخرة الماضية يجد موانئ القنفذة، والبرك، والقحمة وغيرها كانت ذات نشاطات تجارية داخلية وخارجية واسعة، بل كانت أيضاً تستخدم في بعض النشاطات الحربية والعسكرية بين أهل البلاد ومن يسعى إلى غزو بلادهم والسيطرة عليها .

٤. للقنفذة مقومات جغرافية وحضارية جيدة، وهذا مما يشجع تنميتها وتزويدها بالعديد من المشاريع الحيوية مثل: مطار يساعد عشرات الآلاف من البشر على السفر جوا وقضاء حوائجهم في سهولة ويسر . كما أن منطقة القنفذة وما حولها من النواحي بحاجة ماسة إلى مؤسسات تعليمية عالية مجتمعة في جامعة مستقلة، فتساعد شباب وشابات هذه البلاد على الترقي في مجال التعليم العالي . وهذا ليس صعباً على الدولة وفقها الله فهي دائماً وأبداً سباقة إلى كل خير، بل إن ولاة الأمر حريصون على توفير كل ما يسعد المواطن، ويرفع من شأنه . وإذا كانت ديار القنفذة تشتمل على بعض المراكز والمستشفيات الصحية، فهذا شيء جميل، لكنها مازالت أيضاً بحاجة إلى مراكز ومشافٍ صحية أكبر ذات جودة عالية وأداء مميز .

٥. يعيش في القنفذة مئات المعلمين والمعلمات، ولا تخلو هذه الشريحة من نماذج قادرة على كتابة الرواية والقصة والقصيدة وإبداعات أخرى، وهذا مما يحتم على وزارة الثقافة والإعلام أن تقيم بها ناديا أدبياً، أو مركزاً ثقافياً يبث النشاط الثقافي والفكري بين سكان المنطقة، بل يجعل البلاد التهامية الممتدة من مكة شمالاً إلى الحريضة والشقيق وبيش جنوباً ذات نشاطات ثقافية وفكرية جيدة، وهذا ما يتمناه ويتطلع إليه أهالي هذه البلاد .

٦. السائح في بلاد القنفذة يجد كثيراً من الصعوبات في الطرق والمواصلات بين الأجزاء الساحلية والنواحي الداخلية، وهذا مما يحتم على وزارة النقل أن تلتفت إلى مثل هذا الجانب فتشق الطرق الواسعة والمعبدة الممتدة بشكل عرضي فتربط أجزاء الساحل بالبلدان الداخلية، وإذا تم مثل هذا الأمر فإن تلك الديار سوف تنمو ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وهذا مما يرغبه أهل البلاد ويتمنونه، كما يتطلع إليه أهل السراة وسكان تهامة الداخليون الذين يفضلون عبور الطرق الساحلية لسهولة أرضها واستوائها .

٧. يجب على مؤسسات التعليم في بلاد القنفذة، بل على الأعيان والوجهاء والمثقفين وأصحاب الفكر والرأي أن يحافظوا على كل موروث اجتماعي، أو ثقافي، أو عمراني، أو اقتصادي يعكس تاريخ بلادهم . ومن خلال تجوالي في تلك الديار وجدت أنها لا تخلو من فلكلور شعبي متنوع، بل هناك الكثير من القصص، والأمثال الشعبية، والأحاجي والألغاز، والنوادر والطرائف

الفكاهية، وهذه الميادين الثقافية جديرة بجمعها والحفاظ عليها حتى تعرف الأجيال الحاضرة والقادمة كيف عاش آباؤهم وأجدادهم، وما كانوا يمارسون ويعيشون من أنماط حضارية متنوعة .

٨. القارئ عن بلاد القنفذة وبخاصة القديمة منها مثل : حلي قديم، والبرك، وضنكان، وحباشة، وعشم وغيرها يجد أنها تحتاج إلى تضافر جهود أصحاب القرار السياسي والإداري، وذوي الغنى والثراء في إجراء دراسات أثرية أكاديمية، ومن ثم التوصل إلى نتائج علمية قيمة تعكس تاريخ وحضارة الأمم والأقوام الذين عاشوا في هذه البلاد خلال العصور الماضية .

٩. مازال هناك بعض القرى والأبنية القديمة القليلة وبخاصة في الأجزاء الداخلية من بلاد القنفذة، ومن ثم يجب على الهيئة العليا للسياحة، والبلديات، ومؤسسات التعليم العام والعالي أن تقوم على صيانتها وترميمها والحفاظ عليها، حتى تكون من المعالم التاريخية والسياحية الجيدة، التي قد تعود على أهل البلاد بالخير الكثير في النواحي الاقتصادية والمعرفية .

١٠. الملاحظ ليس في بلاد القنفذة فحسب وإنما في عموم أنحاء البلاد السعودية وما جاورها من البلدان العربية التباين الكبير بين الأجيال القديمة والأجيال الصاعدة وبخاصة في أنماط التفكير وملامح الحياة اليومية العامة، فالأوائل مازال عندهم الكثير من الثوابت التي يجاهدون من أجل الحفاظ عليها مثل: طريقة اللباس، وبعض العادات والتقاليد الأخرى، أما الشباب المتأخرون فلا يأبهون لمثل هذه الجوانب، بل يرى بعضهم أن كل قديم رجعي وعقيم، وبعض من هذه الأجيال انجرفوا وساروا في ركاب الشباب المنبهر بالحضارة المعاصرة . والواجب على كل الفئات والمستويات (حكومية وأهلية) في المجتمع السعودي أن تبذل قصارى جهودها في ربط الحاضر بالماضي، وتعمل على تشجيع الأجيال الصاعدة في الحفاظ على هويتها وموروثها العقدي والثقافي والفكري القائم على منهج كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

١١. أشرت في مواضيع عديدة من هذا القسم إلى عناوين وموضوعات مازالت جديدة في أبوابها ، وتستحق المزيد من البحوث والدراسات العلمية الموثقة وعندنا - ولله الحمد - العديد من الجامعات الحكومية في جنوب البلاد السعودية ، وعليها ، من خلال كلياتها وأقسامها العلمية ، مسؤولية كبيرة لخدمة أرض وانسان جميع بلدان السروات وتهامة ، ونأمل أن نرى هذه الأمنيات تحقق إلى واقع عملي ملموس ، والله من وراء القصد .